نحو القُرآن

تأليف

أحمد عبد الستار الجواري

النّاشــــر مكتبة اللّغة العربيّة ـ شارع المتنبي ـ مجمع الزّوراء

مطبوعات المجمع العلمي العراقي

نحو القرآن

أحمد عبد الستار الجواري

مطبعة المجمع العلمي العراقي

بغداد

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا بحث عنيت به مدة من الزمن غير قصيرة ، وقد شغل فكري وأنا أنظر في تأمل وإمعان إلى العبارة القرآنيـة حين أتلوها أوحين أستمع اليها .

ولقد بدأت هذه العناية بفضل ممارسة ما كتبه العلامة ابن هشام في شرحه على الألفية ، أو في كتابه الجليل القدر (مغني اللبيب) . وكانت مدارسة هذين الكتابين أدعى إلى التأمل وإنعام النظر ، ولاسيما ما خلعته عليهما العبارة القرآنية من دقة في العبارة واستبعاد للفضول في الأسلوب وفي القاعدة النحويـة .

وقد برزت من خلال ذلك ظواهر وحقائق تنبئ بتقصير النحاة عن استقصائها والوقوف عند ها حين وضعوا قواعد النحو ، مستنبطين إياها مما لايرقى إلى المألوف الجيد بله الرفيع من الكلام.

او حين اعملوا القياس والاستنتاج الذي لايقوم على اساس موضوعي ولقد حملتني مهابة هذا الموضوع وجلالة قدره على تأمل عواقب الخوض فيه ، ولكنها لم تقعدني عن تتبع اجزاء منه في اناة وفي رفق وفي حذر ، يعرفها من يعرض للبحث في مسائل النحو ومشكلاته التي استسلم لسلطانها فطاحل من العلماء ، غير واجدين فوق ما تزودوا زيادة لمستزيد .

ثم هممت بمادة جمعتها منذ سنين اقلب فيها واعيد قراءتها وأجتهد في كتابة بحث عنها ، ولكني ارتددت ارتداد العاجز عن ارتياد آفاقها حسيراً لاقبل له بالوفاء بها .

ولما اذن لي أن اشهد المؤتمر المشترك لمجمع اللغة العربية بالقاهرة والمجمع العلمي العراقي الذي انتظم عقده في القاهرة في شباط ١٩٦٧ ، كان مما أتحف به المؤتمرون بحث في رد شبهات يقع فيها بعض المفسرين والمعربين لآي القرآن الكريم للأستاذ الثبت المحقق الشيخ عبد الرحمن تاج . وقد كان بحق واسطة العقد لأبحاث قيمة لأساتذة أجلاء مازال عطاؤهم للمعرفة ثرا جزيل النفع جم الفوائد .

ولقد حملتني الاستزادة من الاستفادة على أن أقول في التعقيب على البحث المنوه به للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج كلاماً وقع من نفسه ومن نفوس أولئك الأساتيذ الأفاضل موقع القبول ،

وذلك لعمري غاية ما يطلبه مثلي من امثالهم .

ثم كان من هذا المجمع الرفيع المقام رضى عن بحث فيإصول اللغة القيته وكان عنوانه « من دلائل القدم في اللغة العربية » . وفيه إشارات إلى مسائل في نحو العبارة القرآنية جعلت فريقاً من أهل الفضل يستحثني أن أقدم على خوض هذا المدى الذي كنت أجدني أقل ممن يحق لهم أن يوغلوا فيه .

وهكذا يسر الله لي أن أتقحم هذا المجال ، وأن أحرر هذه الصفحات عسى أن يكون فيها خدمة مهما ضؤلت للكتاب العزيز واللغة العربية العزيزة .

ولم تبلغ بي الجرأة مبلغ الاقدام على نشر هذا البحث إلابعد أن عرضت شيئاً مما تناوله عليّ بعض الأفاضل ، وكان يستحثني أن أخرجه وأن أنشره .

ولقد أقدمت على نشره مدركاً أنه جهد مقل آثر أن لايضن به على الدارسين ، مؤملا أن يقع لدى الباحثين موقع التقديرلما بعث على بذل الجهد فيه والاقدام على نشره .

عسى الله أن يجعل فيه أثارة من نفع ، وأن يوفق لاستكماله والاستزادة مما قصد اليه . وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

ما انفكت الرغبة في دراسة نحو القرآن ، على صورة من الصور تملك علي جوانب في نفسي ، ويخالجني شعور ممتزج بقناعة فكرية مستقرة مطمئنة ، بأن دراسة النحو القرآني هي المفتاح الذي ينفتح به كثير من مغاليق النحو ، التي استعصت على كثير ممن تصدى لتيسيره وتهذيبه ، وتمهيد سبله المتوعرة المتشعبة .

والقرآن كتاب العربية الأكبر ، على حد ما كان يصفه به أستاذنا العلامة أمين الخولي افاض الله عليه واسع الرحمة .

وإذن ، فتراكيبه واساليبه ، هي الأصل الذي يستأهل أن تقوم عليه دراسة التراكيب العربية والاساليب العربية .

والقرآن في ما اشتمل عليه من معالجات أدبية متنوعة متعددة قد أسس للأساليب والتراكيب التي استطاعت بعد ان قامت أركان الحضارة ، أن تستوعب أفكارها ومعانيها ، وأن تكون

تلك الأساليب والتراكيب وعاء للعلم والفلسفة وسائر الوان الحياة الجديدة ، فوق كونها أداة التعبير الأدبي المؤثر البليغ .

والقرآن في صورته الطلقة الحرة من كل قيد ، هو الذي خرج بالأساليب العربية من حدودها ، وهو الذي أطلقها من قيودها فصار بها أداة التعبير الفنية عن الحياة والحضارة في جوانبها وأجزائها المختلفة .

والقرآن إذن هو الخليق بأن تكون أساليبه وتراكيبه المثال الذي يقتدى به وينحى نحوه ، ويهتدى به .

– ١ –

ولكن الذي كان ممن وضعوا النحو في اول الأمر ، غير ذلك بل عكس ذلك من بعض الوجوه ، فقد اشتطت بهم السبل وعميت عليهم المسالك ، فتنكبوا سبل القصد ، واعتمدوا في وضع قواعد النحو على مابلغهم من كلام العرب شعره ورجزه ومثله . أو آثروا جانب المنطق ، فتصوروا القاعدة قبل استقراء المادة اللغوية ، وركبوا مركب الشطط ، فحاولوا أن يجعلوا للقواعد المجردة سلطاناً على المروي المأثور ، يحكمونها فيه ويحسبون ان ذلك هو الصواب ، وما هو إلا مجانبة الصواب . ولقد بلغ بعضهم في هذا المجال مبلغ الايغال والغلو ، فحكموا على مواضع من آي القرآن بخروجها على نحو العربية ، وركنوا الى التأويل والتخريج ، حتى تنسجم تلك المواضع بأساليبها الرائعة وتراكيبها

الدقيقة مع ما افترضوا من قواعد وما رسموا للنحو من حدود .

ولو انهم سلموا للقرآن من حيث تاريخ نزوله على الأقل بما سلموا للمروي من كلام العرب في العصور التي يستشهد بالمروي عنها لما سقطوا في مثل تلك المزالق، ولما وقعوا في مثل تلك الاخطاء وأحسب أن دراسة النحو القرآني قمينة أن تقيم قواعد النحو على اصولها التاريخية الصحيحة ، وتبنيها على اسسها الفنية السليمة للأسباب التي أسلفت إليها الاشارة ، وهي أسباب تكاد تكون عند الباحث عن الحقيقة بديهيات ومسلمات أولية .

ولقد كان بعض قدامى النحاة على جانب من هذه العناية بنحو القرآن . واهتمام باستنباط القواعد من تراكيبه وأساليبه ولعل ابن هشام هو الذي كان اشدهم بها عناية واكثرهم بها حفاوة وكانت آثار ذلك بينة في استقامة فكره واستقلال رايه ووضوح شخصيته كما يقال .

ولقد سلمت كتبه على العموم مما يشوب كتب النحو من قواعد واصول مفتعلة مصطنعة تكاد تبعث على السخرية في بعض الأحيان

— ٢ —

وبعد ، فقد كان خليقاً بمن وضعوا النحو واسسوا قواعده أن تكون المادة القرآنية أهم ما يقيمون عليه تلك القواعد ويستندون إليه في وضع النحو ، لأن أسلوب القرآن وتركيبه مبرّأ من

الضرورات والشواذ التي حفل بها الشعر وامتلأ بها غريب اللغة الذي استندوا اليه بلا اعتدال ولا قصد .

فلقد فرطوا في جانب المادة القرآنية تفريطاً أدى بالنحو إلى إهمال كثير من الأساليب القرآنية العالية الرفيعة ،حتى لم تعد تستعمل أو تحاكى ، وحدد الأدباء والمنشئين وقيدهم بأساليب وتراكيب لم يشأ أولئك الواضعون أن يخرجوا عليها .

ومن أشنع سقطات النحاة . أنهم كانوا مهازيل في الرواية فان في كتب النحو كثيراً من القواعد قامت على شواهد لايعلم قائلها ، بل ان كثيراً من تلك الشواهد غريب على اساليب العرب المعروفة في ماروي من مأثور أدبهم شعرا ونثراً . بل هو أشبه شيءْ بالدخيل المستكره ، بل ان بعضه لايكاد يستقيم له معنى ولعل من أكثرها تعلقاً بالذهن شاهد سيبويه (١) على إضافة (لبى) إلى الظاهر : .

دعوتُ لِمَا نابني مِسْوراً فلبَّى فلبَّيْ يدي مسور

— ٣ —

وثمة جانب آخر يستأهل التأمل والتفكير ، ذلك أن النحاة القدامى قد احتكموا إلى المنطق كثيرا وأقاموا عليه قواعد النحو . ناسين ان التعبير باللغة فن ما اكثر ما يتجاوز حدود المنطق ورسومه فيحذف او يذكر ، ويقدم أو يؤخر استجابة لدواع لاتتعلق

(١) الكتاب ج ١ ص ١٧٦

بالمنطق ولاتخضع له .

ولقد أدى بهم ذلك الاستناد إلى المنطق إلى أن يرسموا للتركيب صوراً ثابتة جعلوها هي الأصل، وما عدا ها خروجاً على الأصل فقالوا : إن التركيب لابد أن يشتمل على ركنين مسند ومسند اليه أو موضوع ومحمول ،وذلك هو المبتدأ والخبر والفعل والفاعل، فاذا حذف أحدهما فعلى نية ذكره ، ولابد حينئذ من التقدير .

وقالوا إن المعمول لابد له من عامل يلتمس في التركيب فاذا وجدوه ردوا إليه العمل وإلا قدروه .

وتراهم أحياناً يتلمسون وجه الصواب ويقفون على الحقيقة أو بعض الحقيقة فيقولون : عدم التقدير أسلم من التقدير .

وتراهم يسلمون بوجوب حذف العمدة في مواضع استقرأ وها احسن استقراء ، ولكنهم يوجبون في الوقت عينه تقدير المحذوف فيفسدون بذلك معنى الكلام ويضيعون على منشئه ماقصد إليه بالحذف أو التقديم والتأخير ، وهم بذلك يعزلون النحو عن المعنى بل يجردونه من فنية التعبير التي لايمكن ان ينسلخ عنها لو كان حقاً دراسة شاملة للتركيب .

* * *

تلك امثلة اسوقها للايضاح ليس غير ، وهي من اهم الاسباب التي جعلت من النحو ما يشبه الجسم بلا روح . ولو اننا درسنا نحو القرآن باعتباره أصلا لا سبيل إل الحكم عليه الا بما هو عليه

دون الاحتكام إلى ما هو أقل منه اصالة ، او إلى ما هو دخيل على فن القول من قوالب المنطق . أقول لو أننا درسنا نحو القرآن على هذه الجهة لقامت قواعد النحو على أسس سليمة تستمد من أصل لاحب واضح المعالم لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً ، ولبرأنا النحو من علل كثيرة كثيرة جداً ولأغنينا أساليب العربية بما قضى النحو عليه بالاهمال والاندثار من روائع البيان القرآني .

وإن في ما سيعرض له هذا البحث أمثلة لم تحط ولم تشتمل ، وإشارات أود من أعماق قلبي وفكري أن تدل على سبيل أوضح وأقوم في درس النحو والانتفاع به .

وآمل أن يجد فيها الذين يهمهم أن يتعلق النحو ـ كما هو في الحق ـ بالاسلوب التعبيري وبالمعنى ، بُلغة يبلغون بها ما هو اجدى وانفع .

ولقد سلكت في هذا البحث طريقاً أجدني في حاجة لايضاح الدافع الى سلوكه ، فقد عمدت إلى النصوص مجردة من الشرح والتأويل والتوجيه ، وتعمدت أن أغفل تعليقات المفسرين والمعربين وما قدروا من محذوف تخيلوه أو متقدم في الذكر تصوروه ، أو عامل كان في نظرهم لابد من وجوده ، إلى غير ذلك مما يدل فعهم اليه استمساكهم بقواعد النحو كما تصورها النحاة ودرجوا عليها ، وان تكن أصول النحو وقواعده ضربة لازب بالنسبة لكل باحث مهما

اجتهد في الفكاك من أسارها ، ولكن موقفي منها كان موقف غير المستسلم لها ولا المسلم بها على الاطلاق .

وحسبي أن أدل على أن كثيراً منها غير مطرد ولا متساوق ، وأن أساليب التعبير القرآني تهد منها كثيراً مما أراد النحو أن يفرضه على أساليب العربية فأمكنه منه استسلام الدارسين وتسليمهم بتلك القواعد على كل حال .

وتلك لعمري أدنى إلى الاساليب العلمية في البحث أن يأتي الباحث النص وهو لايحمل في فكره وفي تصوره صورة تخيله لما ينبغي أن يكون عليه ، كالذي يصنعه دارس الهندسة حين يتخيل الشكل كما ينبغي أن يكون لا كما هو كائن ، فيرسم له بالنقط المنفصل بعضها عن بعض ، تكملة لهذه الزاوية أو تلك ، وإضافة فوق هذا الخط أو توجيهاً لجهته ونحو ذلك مما ييسر عليه حل المشكلة أو تبين أوجه الحل فيها .

ولست أزعم أن مابلغته من نتائج يهد بناء النحو جملة او يقيمه على أسس غير أسسه الأولى ، ولكني أقرر أن كثيراً من أصول النحو ونظرياته قد قا م على غير أساس من التزام ما ورد في المأثور من كلام العرب ، وعلى رأس كل أولئك القرآن الكريم وأن أساليب في التعبير الفني أساء إليها تصور النحاة إياها على غير صورتها الواقعية وغاية هذا البحث أن تشير إلى تلك الأصول غير المؤسسة على أساس ، فلا تعود موازين توزن بها الصحة

والخطأ ، ويعرف بها الصواب من الغلط ، ولا تهمل تلك الصور الجميلة من التعبير أو يساء إليها بالتأويل والتقـديـر فيضيع معناها الحقيقي وأثره المقصود في النفوس ولعل أهم ما في هـذا الباب الحذف ، حذف العمدة كالمبتدأ والخبر والفاعل ونحو ذلك ، أو حذف الفضلة كالمفعول والمجرور والمضاف ، ولقد ألفنا النحاة يقدرون ذلك كله ، كأن لأصـل الكلام عندهم صورة لامعدى عنها ولا محيد ، وتقدير المحـذوف سواء كان واجب الذكر أو غير واجب الذكر يغير في المعنـى أو يضعف أثره في النفس ، لأن حذف المألوف ذكره إنما يراد به غالباً ضرب من المشاركة بين المنشئ والمتلقي (قارئاً أوسامعاً) في تصور المعنى العـام حتى يكون ذلك أبلغ في التأثير وأدعى الى الاقتناع ، وهذا الاسلوب في فن التعبير مزية بارزة من مزايا القرآن وهو واضح أيضاً في ما يعرف بالالتفات ، وهـو الانتقال من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى التكلم ، حتى لا يكون السامع او القارئ سلبياً – كما نقول – في تلقي ما يلقى إليه ، وإنما يكون التحول مدعاة لطرد الملل من نفسه وتجديد نشاطه الذهني والشعوري .

* * *

ولست – هنا – في صدد أن آتي على نتائج هذا البحث أو أدل على معالمه البارزة وخطوطه العامة ، لأني أوثر أن أفرد لها مكاناً في الخاتمة ، ولكني أود أن أشير إلى جملة مسائل لفتت نظري بقوة .

فان من ابدع واعجب ما في القرآن ان مواضع منه تحفل بشواهد على مسائل نحوية بعينها ، كأنها تعمد إلى تعليم تلك المسائل أو الأساليب ، مثال ذلك كثرة استعمال الوصف مكان المصدر في سورة الحاقة :

« الحاقَّةُ ما الحاقَّةُ ، وما أدراكَ ما الحاقَّة ، كذَّبت ثمودُ وعادٌ بالقارِعَةِ ، فأمّا ثمودُ فأُهلِكوا بالطاغيَةِ ، وأمّا عادٌ فاهلِكوا بريحٍ صرصرٍ عاتيَةٍ ، سخَّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حسوماً فترى القومَ فيها صرعى كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خاويَةٍ ، فهل ترى لهم من باقيَةٍ ، وجاءَ فرعونُ ومَن قبلَهُ والمؤتفكاتُ بالخاطئةِ (١)» .

وفي سورة القيامة بضعة مواطن حذف فيها الفاعل من دون ان يسبق له ذكر :

« كلا إذا بلغتِ التَّراقيَ ، وقيلَ مَنْ راقٍ ، وظنَّ أنَّه الفراقُ » (٢)

« أيحسبُ الإنسانُ أنْ يتركَ سدى ، ألمْ يكُ نطفةً من منيٍّ يُمنى ، ثمَّ كان علقةً فخلقَ فسوَّى ، فجعلَ منهُ الزوجينِ الذكرَ والأنثى » . (٣)

وفي سورة الليل يكثر حذف المفعول :

« فأمّا مَنْ أعطى واتَّقى ، وصدَّقَ بالحُسنى ، فسنُيسِّرهُ لليُسرى ، وأمَّا

(١) الآيات / ١ - ٩
(٢) الآيات / ٢٦ - ٢٨
(٣) الآيات / ٣٦ - ٣٩

مَنْ بَخِلَ واْسْتَغْنَىٰ ، وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسْرَىٰ (١) » .

ويكثر في سورة الزمر ورود الجملة محذوفاً فيها المبتدأ أو الخبر وهي في الغالب مسبوقة بالاستفهام ، نحو قوله تعالى :

« أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِن ذِكرِ اللهِ (٢) » .

وقوله في سورة هـود :

« أَفَمَنْ كانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِهِ وَيَتْلُوهُ شاهِد مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسَىٰ إِماماً وَ رَحْمَةً (٣) » .

وقوله :

«أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهم حَسَراتٍ (٤) » .

وفي سورة محمد يرد المصدر النائب عن فعله ـ على حد ما يصطلحون عليه ـ متتابعاً في قوله تعالى :

« فَإِذا لَقِيتُمُ ٱلذينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِقابِ حَتىٰ إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثاقَ فَإِمّا مَنّاً بَعْدُ وإِمّا فِداءً حَتىٰ تَضَعَ ٱلحَرْبُ أَوْزارَها (٥) » .

ولعل أهم وأخطر مايمكن أن تؤكده هذه الدراسة حقيقة

(١) الآيات / ٥ ـ ١٠
(٢) سورة الزمر ، الآية / ٢٢
(٣) سورة هود ، الآية / ١٧
(٤) سورة فاطر ، الآية / ٨
(٥) الآية / ٤

قال بها غير واحد من الباحثين ، وهي ان عزل معاني النحو عن النحو مساءة به بالغة ، وجنوح به عن السبيل السوي أي جنوح وتجريد للنحو من روحه حتى يصير جسماً بلا روح وإهاباً بلا محتوى ، وحقيقة أخرى هي الانتفاع بأساليب قرآنية لم توافق قواعد النحاة فعبثوا بها تقديراً وتأويلا حتى توافق تلك القواعد نحو قوله تعالى :

« وَمَا لَنَا الا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا (١) » .

و « فَمَا لَكُمْ في المنافقين فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بما كَسَبُوا (٢) » .

« وَمَا لَكُمْ لاتُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ (٣) » .

ونحو :

« فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِأَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُما فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُما الأُخرىٰ (٤) » .

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نادِمِين (٥) » .

وفي قصص القرآن في سورة يوسف وفي غيرها من أساليب الحوار الرائعة الموحية ما يجدي أكبر الجدوى في كتابة القصة

(١) سورة ابراهيم ، الآية / ١٢
(٢) سورة النساء ، الآية / ٨٨
(٣) سورة النساء ، الآية / ٧٥
(٤) سورة البقرة ، الآية / ٢٨٢
(٥) سورة الحجرات ، الآية / ٦

والرواية ويغني اساليبها الفنية اكبر الغناء .

تلك لمحات قصدت بها إلى ضرب الأمثال ، لعل هذا البحث الذي لم يرتجل ولم يستعجل أن يستهوي الباحثين فيفصلوا فيـــه ويستقصوا ويجدوا فيه مالم أجد من نفيس الجوهر مما ينفخ في علم العربية روحاً ، ويبث فيه طلاوة الفن وحلاوته ،وعلى الله قصد السبيـل .

الفصل الأول

المبتدأ والخبر

آثرت أن أبدأ بهذا الباب لأنه عماد التركيب واحد اصولــــه وصورة الاسناد التي لاخلاف على وجوب ذكر طرفيها بالفعـــل أو بالقوة .

فكل مبتدأ لابد له من خبر وكل خبر لابد له من مبتدأ ، لأن الحكم لايمكن أن يتصور إلا بالمسند إليه موصوفاً بالمسند فان ذكر كلاهما كان بها وإن حذف أحدهما صار النحاة إلى تقديــــره حتماً لأن الكلام على حد ما يزعمون لايقوم إلا بالركنيـــــن ولاتسل عما ينطوي عليه التقدير من التكلف والتعسف الـــذي يذهب برواء العبارة ويخرجها عما قصدت اليه من اثر في نفس القارئ أو السامع .

ولننظر في طائفة من العبارات القرآنية ونحكم بعد ذلك هـــل ثمة من حاجة الى التقدير والتأويـــــــــل .

١ ـ « وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ » (١).

٢ ـ « وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ (٢) »

٣ ـ « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا » (٣).

٤ ـ « فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ » (٤).

٥ ـ « بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَىٰ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (٥).

٦ ـ « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » (٦).

٧ ـ « إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ » (٧).

٨ ـ « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ » (٨).

---

(١) سورة البقرة ، الآية / ٢٨٣
(٢) سورة النساء الآية / ٨١
(٣) سورة النساء ، الآية / ٩٢
(٤) سورة النساء ، الآية / ١٧١
(٥) سورة التوبة ، الآية / ١
(٦) سورة التوبة ، الآية / ١١
(٧) سورة النحل ، الآية / ١١٦ ، ١١٧
(٨) سورة النور ، الآية / ٥٣

٩ ـ « وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، قُرَّةُ عينٍ لي ولكَ »(١).

١٠ ـ « لقدْ كان لِسَبَإٍ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ، جَنَّتانِ عَنْ يَمينٍ وشِمَالٍ كُلوا مِنْ رِزْقِ ربكُم وٱشكُرُوا له بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وربٌّ غَفُورٌ »(٢).

١١ ـ لا يَسْأَمُ الإِنْسانُ من دُعاءِ الخيرِ وإن مسَّهُ الشَّرُّ فيؤُسٌ قنُوطٌ »(٣).

١٢ ـ « وَإِذا أَنْعَمْنا عَلىٰ الإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنأَىٰ بجانِبِهِ وَإذا مَسَّه الشرُ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ »(٤).

١٣ ـ «أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِهِ »(٥).

١٤ ـ « أَفَمَنْ كانَ عَلىٰ بَيِّنةٍ مِنْ رَبِهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنهُ »(٦).

١٥ ـ « أَمْ يَقُولُونَ : شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ »(٧).

١٦ ـ «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ»(٨).

١٧ ـ «وَٱلَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا ذٰلكم تُوعظونَ بهِ واللهُ بما تَعْمَلونَ خَبيرٌ ، فَمَن لَمْ

(١) سورة القصص ، الآية / ٩
(٢) سورة سبأ ، الآية / ١٥
(٣) سورة فصلت ، الآية / ٤٩
(٤) سورة فصلت ، الآية / ٥١
(٥) سورة الزمر ، الآية / ٩
(٦) سورة هود ، الآية / ١٧
(٧) سورة الطور ، الآية / ٣٠
(٨) سورة القمر ، الآية / ٩

يَجِدْ فصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قبلِ أن يتماسّا فمن لَمْ يَسْتَطِعْ فإطعامُ سِتّينَ مسْكيناً » (١) .

لقد جرى النحاة والمعربون على تقدير محذوف في المواضع التي مر سردها وما يماثلها من التراكيب ، لأن التركيب لا يمكن أن يستغنى عن وجود الركنين كما أسلفنا . قاعدة تقوم على المنطق ولا تعبأ بالأصل العلمي الذي لايجوز له أن يفترض في مادة البحث مهما كانت ، ما ليس موجوداً فيها ، ثم ان هذا الافتراض أو التقدير أو الاصرار على وجود محذوف يذهب بما قصد إليه الكلام من تأثير بعينه في نفس القارئ أو السامع ، ولو أننا عرضنا مايذكره المعربون من تقديرات في هذه المواضع وسواها لوجدناهم يتكلفونها من بين ثنايا العبارة ولو صرح بها في الكلام لخرج عما قصد إليه . مثال ذلك قول الفراء في إعراب: « وَيَقُولُونَ طاعَةٌ »(٢) . الرفع على قولك منا طاعة أو أمرك طاعة ، وكذلك : « قُلْ لاَ تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ » (٣) . معناه ، والله أعلم قولوا سمع وطاعة ، وكذلك التي في سورة محمد صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة المجادلة ، الآية / ٣ ، ٤

(٢) سورة النساء ، من الآية / ٨١

(٣) سورة النور ، الآية / ٥٣

« فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ، طاعةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ » (١) . ليست مرتفعة بـ (لهم) ، هي مرتفعة على الوجه الذي ذكرت لك . وذلك أنهم أنزل الأمر بالقتال فقالوا : سمع وطاعة فـاذا فارقوا محمداً صلى الله عليه وسلم غيروا قولهم فقال الله تبارك وتعالى :

« فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لكان خَيْراً لَهُم » (٢) .

وقد يقول بعض النحويين وذكر فيها القتال وذكرت طاعة وليست فيها واو فيجوز هذا الوجه ، ولو وردت الطاعة وجعلت كأنها تفسير للقتال جاز رفعها ونصبها .

أما النصب فعلى : ذكر فيها القتال بالطاعة أو على الطاعة والرفع على : ذكر فيها القتال ذكر فيها طاعة (٣) .

كل هذا السلوك في الدروب الملتوية لتحقيق القاعدة التي يقوم عليها مذهب الفراء أن المبتدأ مرفوع بالخبر وأن الخبر مرفوع بالمبتدأ (ذلك مذهب أهل الكوفة) .

وأنت ترى أن لاحاجة أطلاقاً لأي زيادة في الكلام ، وهـذا اللفظ المفرد المرفوع (طاعة) يغني عن تركيب ، ويستغني عن كل تقدير يقدم عليه أو يؤخر عنه ، فهو إما إخبار يسد مسد تركيب ، وإما انشاء لايحتاج إلى مزيد .

---

(١) الآية / ٢٠ ، ٢١

(٢) سورة محمد ، من الآية / ٢١

(٣) معاني القرآن ج ١ / ص ٢٧٨ - ٢٧٩

ومن امثلة ذلك ايضاً قول الزمخشري في : « أَفَمَنْ كَانَ علىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوه شاهِدٌ مِنْهُ »(١) . معناه أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بينة أي لايعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم(٢).

وأي بون بين هذا التأويل ومعنى ما قصدت إليه العبارة في الآية ، وأنىٰ للمعرب أن يضيف إلى العبارة ماليس منها صراحة ولا ضمناً .

وصفوة القول إن الاكتفاء بالاسم المرفوع العمدة يشيع في العبارة القرآنية على الأغلب في أربع صور :

الأولى : جملة الشرط حين يقع الجواب جملة ، فيكتفى فيها بأحد الركنين دون أن يكون الآخر مذكوراً في كلام متقدم إلا إشارة أي إشارة إليه نحو :

« فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلىٰ سفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّام أُخَرَ »(٣) .

وقوله تعالى :

« فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزكَاةَ فَإِخْوانُكُمْ في الدِّينِ »(٤) .

« وَإِنْ كُنْتُمْ علىٰ سَفَرٍ ولَمْ تَجِدُوا كاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ »(٥) .

---

(١) سورة هود ، الآية / ١٧

(٢) الكشاف ج ٢ ص / ٢١٠

(٣) سورة البقرة ، الآية / ١٨٤

(٤) سورة التوبة ، الآية / ١١

(٥) سورة البقرة ، الآية / ٢٨٣

« ومَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمةٌ إلى أَهلِهِ إلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا» [1] .

الثانية : حين يكون موصوفاً نحو قوله تعالى :

« بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَربٌّ غَفُورٌ » [2] .

« قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعةٌ مَعْروفَةٌ » [3] .

وهذا يشعر باغناء الوصف مطلقاً و كفايته عن الوصف المسند وهو الخبر .

الثالثة : في مواضع معينة بعد الاستفهام سواء أكان حقيقياً أم غير حقيقي ، كأن في الاستفهام دلالة على عجب أو إعجاب أو استنكار يستغنى به عن الركن الاخر في التركيب نحو .

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » [4] .

« أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسناً» [5] .

الرابعة : بعد القول وهذا كثير كثرة تلفت النظر نحو :

« ويَقُولُونَ طَاعَةٌ » .

« وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعونَ قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولَكَ » [6] .

---

(1) سورة النساء ، الآية / ٩٢
(2) سورة سبأ ، الآية / ١٥
(3) سورة النور ، الآية / ٥٣
(4) سورة هود ، الآية / ١٧
(5) سورة فاطر ، الآية / ٨
(6) سورة القصص ، الآية / ٩

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلمَنُونِ » (١) .

ولقـد مر سرد الأمثلة فلا داعي للعودة إليها ، مع أن مـا يستخلص منها جميعاً حقيقة ذات طرفين :

الأول : أن بعض الأسماء التي يؤتى بها في حالة الاسناد تكون مشحونة بالمعنى والايحاء بحيث لاتحتاج الى مايوضحها أو يصفهـا أو يسند إليها .

الثاني : الاكتفاء بمجمل ما يدل عليه السياق من معنى الو صف والاسناد دون التقيد بورود لفظ يشار إليه بضمير أو نحو ذلـك .

وهذه كلها طرق في التعبير الفني جنى عليها تمسك النحـاة باجزاء الجملة ولاسيما طرفاها اللذان يعرفان بالعمدة . وتقدير مالم يذكر منهما ، وتأويل الكلام بحيث تذهب روعتـه ويضمحل أثره في النفس ، أنظر الى قول الزمخشري في قوله تعالى من سورة يونس :

« قل أَنَّ ٱلَّذِين يفْتَرونَ عَلَى ٱللهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُون مَتَاعٌ في الدُّنْيَا » (٢) .

قال : أي افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا (٣)

وفي :

« بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِه » . قال : براءة خبر مبتدا محذوف اي هـذه

---

(١) سورة الطور ، الآية / ٣٠

(٢) الآية / ٦٩ - ٧٠

(٣) الكشاف ج ٢ ص / ١١٧

براءة (١) .

وقد يكون غرضهم من التقدير محض توجيه للقاعدة النحوية ومحض التزام بالصناعة الكلامية ، إلا أنه على كل حال عبث بالنص وخروج على المعنى الذي أريد به ، وهو بعد ذلك كله تضييع لفنية الاسلوب لايغتفر فيه التذرع بالتزام القاعدة التي لم تستكمل أسباب قيامها بالاستقراء الشامل .

(١) الكشاف ج ٢ ص / ١٣٧

الفصل الثاني

الفعل والفاعل

الفاعل عمدة وهو إذن واجب الذكر ، لا يجوز حذفه فان ظهر كان بها وإلا فهو ضمير مستتر عائد على ظاهر مذكور قبله قال ابن مالك :

وَبَعْدَ فِعْلٍ فَاعِلٌ فَإِنْ ظَهَرْ   فَهُوَ وَإِلاَّ فَضَمِيرٌ ٱسْتَتَرْ

ولكن العبارة القرآنية يشيع فيها أن يأتي الفعل وحده من دون أن يسبقه اسم ظاهر يصلح ضميره فاعلا لذلك الفعل قال تعالى في سورة القيامة :

« كَلَّا إذا بَلَغَتِ ٱلتَّراقِيَ ، وقِيلَ مَنْ رَاقٍ ، وظَنَّ أنّه ٱلفِراقُ » (١) .

وقال تعالى في سورة القيامة ايضاً :

(١) الآيات / ٢٨ ، ٢٦

« أَيَحْسَبُ ٱلإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ، فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ ، أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ »[1] .

وقال تعالى في سورة المجادلة :

« ما يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاثَةٍ إلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ولاَ خَمْسَةٍ إلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ولاَ أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا »[2] .

ألا ترى أن الفاعل في الايات السابقة قد استغني عن ذكره لأنه معلوم مفهوم من سياق الكلام . ؟

ولو أرادوا أن يضمروا في : « وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ » . مايعود على الانسان المذكور في : « يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »[3] . لما تأتى لهم ذلك لأن الضمير يعود على أقرب ظاهر ،والظاهر القريب لايصلح لأن يعود عليه الضمير .

والامر في « كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ » . أوضح واجلى فان ما يصلح للفاعلية لفظاً أو معنى لا وجود لذكره في السورة من أولها الى آخرها .

(١) الآيات / ٣٦ - ٤٠

(٢) الآية / ٧

(٣) سورة القيامة ، الآية / ١٣

أما آية المجادلة وأشباهها فلعلهم يجعلون الاسم المجرور بـ (من) في موضع الفاعل وهو خلاف ما تأسست عليه قواعدهم ولـــو أجازوا أن يكون الجار والمجرور فاعلا في مواضع بعينها لهان عليهم الامر ، ولكنهم يتأولون ويتعسفون فيزعمون أن حرف الجر زائد في مثل :

« قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ »(١) .

وفي مثل :

« أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »(٢) .

يقول الزمخشري : بربك في موضع الرفع على أنه فاعل كفى . و « انَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ » . بدل منه تقديره أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد (٣) .

وأنت ترى البون البعيد بين هذه العبارة والنص القرآني حيث يتجه الاسناد الى (بربك) فيه . ويتجه في عبارة الزمخشري الى ما يتعلق به ، وهو كونه (على كل شيء شهيد) .

وذلك لعمري افتئات على النص وخروج به عن حقيقة معناه وواقعه ، وهي التي تجر الى التهاون في دقة التعبير والاستهانة بهـا ، ثم تفضي كما أفضت الى رخاوة في ضبط الأفكار

(١) سورة الرعد ، الآية / ٤٣

(٢) سورة فصلت ، الآية / ٥٣

(٣) الكشاف ج ٣ ص / ٣٩٦

واضطراب في المقاييس الفكرية .

وللفعل في القرآن قوة الاسم ، فهو يقع في العبارة القرآنية في موقع الفاعل نحو قوله تعالى :

« ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَارَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ »[1] .

وليس هذا بالامر الغريب فالفعل والاسم في العربية فرعان من اصل واحد ، وكلاهما يدل على معناه في نفسه كما يقول النحاة .

وليس معنى الزمن الموجود في الفعل بمانع من استعماله استعمال الاسم ، فهو يقع ـ على حد ما يذكرون ـ صفة أو حالا أو خبراً ومعنى الزمن يوجد في الاسم بالقوة كالمصدر وبالفعل كالأسماء المشتقة ولاسيما اسم الفاعل واسم المفعول على أنهم يجيزون وقوع الفعل موقع الاسم إذا سبقه حرف مصدري .

ويقول الزمخشري في إعراب الاية السالف ذكرها :

فاعل بدا مضمر لدلالة ما يفسره عليه وهو ليسجننه والمعنى بدا لهم بداء أي ظهر لهم رأي لَيَسْجُنُنَّهُ .[2]

وهذا التأويل ظاهر التكلف ، وهو فوق ذلك مخالف لقاعدتهم المشهورة إن المفسر عين تفسيره ، ولو قيل في غير القرآن ثم بدا

---

(١) سورة يوسف ، الآية / ٣٥

(٢) الكشاف ج ٢ ص / ٢٥٥

لهم أن يسجنوه ، مع التسليم باختلاف المعنى لما احتاجوا إلى مثل هذ االتعسف في التأويل .

ولقد كان الفراء أقرب إلى الحق وأدنى الى الصواب وابعد عن التزام مالاحاجة الى التزامه من التقدير والتأويل المتكلف هاهو ذا يقول في اعراب قوله تعالى من سورة الأنعام :

« كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَارَيْبَ فِيهِ »(١) .

والعرب تقول في الحروف التي يصلح معها جو اب الأيمان بأن المفتوحة وباللام فيقولون أرسلت إليه أن يقوم وأرسلت إليه ليقومن ، وكذلك قوله :

« ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ » (٢) .

وهو في القرآن كثير. ألاترى أنك لو قلت : بدا لهم أن يسجنوه كان صوباً ؟ (٣) .

على أن العبارة القرآنية لاتقتصر على ما ذكر « من الحروف التي يصلح معها جواب الأيمان » . مثال ذلك ، قوله تعالى في سورة الزمر :

« أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيها الجَاهِلُونَ » (٤).

ومن بديع الاستعمال في العبارة القرآنية وقوع الفعل فاعلا للأفعال الناسخة حين تكتفي بالمرفوع وهو أسلوب فيه ما فيه من الا يجاز

---

(١) الآية / ١٢

(٢) سورة يوسف ، الآية / ٣٥

(٣) معاني القرآن ص ٣٢٨

(٤) الآية / ٦٤

الرائع والاستغناء عما لاحاجة للكلام به .

من ذلك قوله تعالى في سورة التوبة :

« لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ » (١) .

وقوله في سورة النمل :

« قل عَسىٰ ان يكون رَدِفَ لكم بعض الذي تستعجلون » (٢) .

وقوله في سورة غافر:

« قَالُوا أَولَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بالبَيِّنات » (٣) .

وقوله في السورة نفسها :

« فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا » (٤) .

والذين لايرتضون فكاكاً من أسر القاعدة وإن بان فسادها يركنون إلى التأويل والتقدير كما هي عادتهم .

يقول الزمخشري في آية التوبة التي مر ذكرها : في كادضمير الشأن ، وشبهه سيبويه بقولهم ليس خلق الله مثله (٥)

ومن الواضح أن الاسناد في العبارة لايمكن ان يتجه إلى محذوف لايتعلق به حتى التقدير ، وهو متجه إلى المذكور كله أوبعضه

(١) الآية / ١١٧
(٢) الآية / ٧٢
(٣) الآية / ٥٠
(٤) الآية / ٨٥
(٥) الكشاف ج٢ / ص١٧٥

وهو فاعل الفعل المذكور ، الا ترى انه يتجه ان يقال في غير القرآن: قالوا أولم تلك رسلكم تأتيكم بالبينات فلم يلك أيمانهم ينفعهم لما رأوا بأسنا . من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ .

وإذن فلا محل لضمير الشأن ولا حاجة به .

ومما ينبغي أن يلاحظ في هذا الباب أن النحاة كثيراً ما يتخذون من ضمير الشأن وهو في الغالب محذوف غير ممكن الذكر ذريعة يسوون بها قواعدهم ويجر ونها على الوجه الذي يريدون من دون أن يعبأوا بصحة ذلك عقلا أو استقامته اسلوباً .

ومن فرائد الاستعمال القرآني ورود الفعل غير محتاج الى الفاعل لأنه مطلق غير مقيد بفاعل ما ، بل يصلح له كل ما يحتمل أن يقوم به . مثال ذلك قوله تعالى في سورة النور :

«أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ موجٌ من فوقه سَحَابٌ ظُلُمات بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا (١) » .

وهذا شديد الشبه بالخبر المحذوف ـ على حد قولهم ـ حين يتعلق به الجار والمجرور أوالظرف ، فيقدرونه بكائن أوموجود ، وهو في حقيقته تعلق بالكون العام وهو فعل الكائنات جميعاً أو بعبارة أدق هو وصفها الذي لم تعد حاجة لذكره لأنه ينتظمها كلها ، سواء وصفت بغيره كأفعال الكون الخاص ـ وهي سائر الأفعال ـ أم لم توصف ، وتفسير ذلك أن كل موجود في هذا

(١) الآية / ٤٠

الكون كائن ، فهو قد كان أو يكون أوهو كائن مالم يسند اليه وصف آخر كالقيام والقعود والمشي والوقوف وسوى ذلك من الأفعـــال .

وقد استغنت العربية عن ذكر هذا الفعل ـ الكون العام ـ بالخبر وهو اسم فيه معنى الوصف بخلاف اللغات الحديثة وأكثر ما نعرف من اللغات ، الذي يسميه دارسو تلك اللغات فعل الكينونة.

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الحجرات :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبرُوا حَتىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُم[1] » .

يقول الزمخشري في إعراب هذه العبارة : في كان إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو ، وإما ضمير مصدر صبروا (٢) .

(١) الآية / ٤ ، ٥

(٢) الكشاف ج ٤ ص / ٨

الفصل الثالث

المفعول

وكثيراً ما يرد في العبارة القرآنية الفعل المتعدي إلى المفعول ولا مفعول بعده ، والأمثلة على ذلك كثيرة والذين اشتغلوا باعراب القرآن أقل تعسفاً في توجيهها وأدنى إلى الصواب وأقل جنوحاً عن جادة الصواب .

من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة :

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١) » .

يقول الزمخشري : مفعول (شاء) محذوف لأن الجواب يدل عليه والمعنى : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها (٢) .

وعجيب أن يدل آخر الكلام على أوله ، والمألوف أن يحذف

---

(١) الآية / ٢٠

(٢) الكشاف ج١ ص / ٤٣

الجواب لدلالة الشرط عليه ، أوأن يحذف أي جزء من الكلام لدلالة ماقبله عليه .

والحق ان ورود الفعل المستحق للمفعول بلا مفعول ، إنما يكون مقصوداً به إطلاق الفعل في كل ما يسمح المقام بتصوره مفعولا لذلك الفعل دون النص على أسم بعينه ، مثال ذلك قوله تعالى في سورة الليل :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ » (١) .

ويؤيد ذلك قول الزمخشري في إعراب قوله تعالى :

« وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً » (٢).

قال : رأيث ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر ليشيع ويعم كأنه قيل وإذا أوجدت الرؤية (٣) .

إن هذا الاسلوب في الاستغناء عن الفاعل أو المفعول والاكتفاء بالفعل يدل على أن الفعل وحده قد يكون وافر الدلالة واسع المعنى بحيث يقوم وحده مقام التركيب بطرفيه ، وهذا أمر لم يقدروا على التصريح به ، وأنى لهم أن يقبلوا به وهم يبدأون بحثهم للنحو بتعريف الكلام : أنه اللفظ المركب المفيد فائدة يحسن السكوت عليها .

أما اجازتهم عدم ذكر المفعول فمردها إلى أنهم يذهبون إلى

(١) الآيات ٥ ـ ٧
(٢) سورة الانسان ، الآية / ٢٠
(٣) الكشاف ج ٤ ص / ١٧٠

ان المفعول فضلة ، والفضلة يجوز حذفها إن دل عليها دليــــل وقد تحذف وإن لم يدل عليها دليل .

والمقصود بوجود الدليل ذكر سابق على مكان الحذف ، وقد أسلفنا أن الايحاء بمعنى ما يحتمل ذكره كثير الورود في الكتاب العزيز ، حتى في عمدة الكلام كالمبتدأ والخبر والفاعل ونحو ذلك .

الفصل الرابع

حذف القول

ومما يكثر وروده في العبارة القرآنية حكاية القول دون العناية بذكر القول ، وهو اشبه ما يكون بلوحة اسقط منها ما لاحاجة به من خطوط ابتغاء التنويه بجوهر الموضوع أو صورة قصد فيها الى اهمال مالا يتعلق بالمعنى أو الفكرة التي أريد التعبير عنها والالتفات الى الأصل والأساس . وفيه أيضاً ضرب من ضروب الانقطاع الذي يحمل السامع أو القاريء على توقع أمر ذي بال ، ولو اتصل الكلام لما أثار قدراً من الانتباه والاهتمام مثل الذي يثيره الانقطاع ، كالذي يسير في طريق ممهدة لاحبة تقوده قدماه حتى لايعود يتلفت حوله ولا يتنبه لما يحيط به حتى يفجأه انحراف في الطريق أو التواء ، أو انقطاع ، يسلم الى منحدر أو مرتقى فيفتح عينيه ويرهف حواسه لما يأتي بعد ذلك الانقطاع .

تأمل قوله تعالى في سورة القصص :

«فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المبارَكَةِ مِنْ الشَجَرَة أَنْ يامُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ، وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَاتَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِين » (١) .

وفي سورة فاطر :

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّن عَذَابِها كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ، وَهُم يَصْطَرِخُونَ فيها رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما للظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » (٢) .

ألا ترى كيف يقرع بهذا الانتقال والالتفات أسماعاً غير مصغية ويهز مشاعر غير صاغية .

وأكثر ما يكون الاسلوب حيث يراد إبراز المعنى إبرازاً يزيد في قيمته وفي أهميته حتى لو حكي على لسان من يراد التنديد بهم والسخرية منهم ، مثال ذلك ما جاء في سورة الزمر :

« فَاعبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ، أَلَا للهِ الدينُ الخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ (٣)» .

---

(١) الآية / ٣٠ ، ٣١
(٢) الآية / ٣٦ ، ٣٧
(٣) الآية / ٢ ، ٣

وفي سورة الأحقاف :

« ويَوْمَ يُعْرَضُ ٱلذينَ كَفَرُوا عَلىٰ النارِ ـ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ في حَياتِكُمْ ٱلدُّنيا وٱسْتَمْتَعْتُمْ بها [1] »

ولعل من أهم ما يلاحظ في هذا الاسلوب أنه ضرب مما يعرف عند أهل البلاغة بالالتفات ، وهو التفات ينتقل فيه الكلام من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب ، أو ينتقل فيه من الخبر الى الأنشاء أو من الإنشاء إلى الخبر ، فمن أمثلة الانتقال الأول قوله تعالى :

«وجَعَلْنا ٱبْنَ مريَمَ وأُمَّهُ آيةً وآويْناهُما إلىٰ ربْوَةٍ ذاتِ قرارٍ ومَعينٍ ، يا أَيُّها ٱلرسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّباتِ وٱعْمَلُوا صالِحاً إنِّي بِما تعْمَلُون عَليم » [2] .

وقوله تعالى :

« فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ في المدائِنِ حاشِرينَ ، إنَّ هٰؤلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلَيلون ، وإنَّهم لنا لغائظُونَ » [3] .

ومن أمثلة الانتقال من الخبر إلى الأنشاء قوله تعالى :

« وإِذْ يرفَعُ إبراهِيمُ القَواعِدَ مِنَ ٱلبَيْتِ وإسماعِيلُ ربَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنْتَ السَّميعُ العَليم» [4] . »

---

(١) الآية / ٢٠

(٢) سورة المؤمنون ، الآية / ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة الشعراء ، الآيات / ٥٣ ـ ٥٥

(٤) سورة البقرة / الآية / ١٢٧

وقوله تعالى :

«إنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وَٱخْتِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولي ٱلأَلبابِ الَّذِين يَذْكُرُون الله قِياماً وَقُعُوداً وعَلى جُنُوبِهم ويَتفَكَّرُونَ في خلْقِ ٱلسَّمواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا مَا خَلَقْت هٰذا بَاطِلاً سُبحانَكَ فقِنا عَذابَ ٱلنّار» (١) .

وقوله تعالى :

« وَٱقْتَرَبَ ٱلوَعْدُ الحقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ » (٢) .

ونحن نلحظ في أكثر هذه المواضع أن المقول مسبوق بايماءة تدل عليه وتنبئ به دون تصريح بفعل القول ، وذلك أمر لا يكتفي به النحاة ولايسكتون عليه وإنما يقدرون فعل القول مضمراً ، قال الزمخشري في :

« فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي المدائنِ حاشِرِينَ ، إِنَّ هٰؤلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَليلُون » (٣).

« إن هؤلاء محكي بعد قول مضمر » (٤) .

إن في هذا الاسلوب الجميل أكثر من مظهر واحد من مظاهر الفنية التعبيرية فهو مركب من الحذف النحوي والايجاز والفصل لشبه كمال الانقطاع والالتفات .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية / ١٩٠ ، ١٩١

(٢) سورة الانبياء ، الآية / ٩٧

(٣) سورة الشعراء ، الآية / ٥٣ ، ٥٤

(٤) الكشاف ج ٣ ص / ١١٥

وكثرة وروده في العبارة القرآنية أمر يدعو إلى التأمل فقد عددت أكثر من عشرين موضعاً لم يرد فيها فعل القول بلفظه أو بمعناه ، على الوجه الذي وضع النحاة حدوده حين بحثوا مسألة (ان) المفسرة [1] .

وشيوع هذا الاسلوب ينقض قواعدهم في الحكاية ومقول القول ، ويومىء إلى أصل في التركيب لم يرد له عندهم ذكر ذلك أن الكلام المحكي يكفي أن يسبقه ما يوحي بوروده غير مقيد بصيغة فعل القول (قال وما يشتق منها) . ولا بصيغة فيها معنى القول مثل ذكر وأوحى ونحو ذلك .

لننظر في مثل قوله تعالى :

« الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» [2]

وفي قوله تعالى :

« يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » [3].

أليس في مايسبق القول المحكي من الكلام ما يوحي به ؟ أليس لسان الحال عند أولي الالباب الذين يذكرون الله قياماً

---

(١) مغني اللبيب .

(٢) سورة آل عمران ، الآية / ١٩١

(٣) سورة التوبة / الآية ٣٥

وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ، هو الذي يقول : ربنا ما خلقت هذا باطلا ، الاية .

أوليس لسان الحال بالنسبة للذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هو الذي يخاطبهم قائلا : هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون .

ولسان الحال الذي افضنا في الحديث عنه ليس مما يتعلق به بحث النحاة ، لأنهم ألزموا أنفسهم باستبعاد المعاني وصرفها الى ما سمي علوم البلاغة ، وهي في الحق معاني النحو التي لايستقيم النحو إلا بها ولا تستقر قواعده إلا عليها ، وهذا أمر تنبه له غير واحد من الباحثين في مسائل النحو ونقد منهجه ، ولعل أولهم في عصرنا هذا المرحوم الأستاذ ابراهيم مصطفى في كتابه الجليل: (إحياء النحو) .

وليس هذا البحث مجالا للخوض في هذه المسألة فانها تستأهل أن يفرد لها جهد مستقل ، ولكنها على كل حال واحدة من أهم قضايا العربية ، وعلة من أهم العلل التي جعلت من النحو هذا العلم الذي اختلطت فيه الغاية بالوسيلة ولم تسلم فيه الموازين من الارتباك والاضطراب .

والحديث عن قضايا الحذف والذكر ، والايجاز والاطناب

امر صرفه علماء العربية إلى علم المعاني ، ولا سيما حين يكون الحذف مما يجوزه النحاة ، أما الحذف الواجب - بزعمهم - فهو من قضايا النحو ومسائله .

ولكن حديث النحاة عما يجوز حذفه أو لايجوز لم يحط بالاستعمالات الواردة في العبارة القرآنية .

من ذلك حذف المضاف والاكتفاء بالمضاف إليه ، في أسلوب تفردت به العبارة القرآنية ، وقضت قواعد النحاة أن يهجر فلا يستعمله المنشئون ، ويكثر ذلك حين يكون المحذوف المتصور علة لما قبله ، أو بعبارة النحاة مفعولا له او سبباً ، من ذلك قوله تعالى في سورة هود :

« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » (١).

قال الزمخشري : أن يقولوا مخافة أن يقولوا(٢)

وقال أيضاً في قوله تعالى من سورة النحل :

« وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » (٣) . كراهة أن تميل بكم وتضطرب (٤)

---

(١) الآية / ١٢

(٢) الكشاف ج٢ / ص ٢٠٩

(٣) سورة النحل ، الآية / ١٥

(٤) الكشاف ج ٢ ص / ٣٢٤

وفي قوله تعالى من السورة عينها :

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُم أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ »(١): بسبب ان تكون...(٢)

وفي قوله تعالى من سورة الاسراء :

« وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً » (٣) . كراهة أن يفقهوه (٤)

ومثل ذلك كثير منه أيضاً قوله تعالى في سورة الانبياء :

« وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ » (٥)

وفي سورة النور :

« يَعِظُكُمْ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً (٦) » .

وفي سورة الزمر :

« وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ، أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ »(٧).

وفي سورة الحجرات :

---

(١) سورة النحل ، الآية / ٩٢

(٢) الكشاف ج ٢ ص / ٣٤٢

(٣) الاسراء ، الآية / ٤٦

(٤) الكشاف ج ٢ ص / ٣٦٣

(٥) الآية / ٣١

(٦) الآية / ١٧

(٧) الآية / ٥٥ ، ٥٦

« يَا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُم نادِمينَ » (١) .

ويكثر في الاستعمال القرآني إقامة الوصف مقام الموصوف والموصوف عمدة مبتدأ أو نحو ذلك .

والوصف من قبيل ما يسمونه الفضلة التي لاتقوم بذاتها ـ على حد مايدعون ـ وإنما تتعلق بمحذوف كما يذهب إليه الأكثرون .

من ذلك قوله تعالى في سورة النساء :

« وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إلا لَيُؤمِنَنَّ بهِ قَبْلَ موتِه ويَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهيداً » (٢) .

وفي سورة الصافات :

« وَمَا مِنّا إلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » (٣) .

وفي سورة مريم :

« وَإِنْ مِنْكُمْ إلا وَارِدُها كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِياً »(٤) .

ويلحظ أن ذلك يكثر وروده في جملة النفي ، حين يكون معنى المنفي عاماً لاحاجة لذكره ، كلفظ « أحد » ونحوه ، ولكنه يرد أيضاً في غير جملة النفي كقوله تعالى في سورة الاعراف :

« وَقَطَّعْنَاهُمْ في الأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمْ الصالِحُونَ ومِنْهُم دُونَ ذلِكَ وبَلَوْناهُمْ

---

(١) الآية / ٦
(٢) الآية / ١٥٩
(٣) الآية / ١٦٤
(٤) الآية / ٧١

بالحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .[1] »

يقول الزمخشري في إعرابها : محله « اي الظرف » الرفع وهو صفة لموصوف محذوف ومعناه ناس منحطون عن الصلاح ، ونحوه ومامنا إلا له مقام معلوم[2] .

وواضح ان التقدير : الذي تلجئهم إليه قواعد النحو ، يخل بمعنى العبارة ويمسخ معناها ويذهب بالكثير من فنية التعبير ، وواضح أيضاً أن المقصود إيثار الوصف بالذكر لأن الموصوف واحد من اثنين إما اسم عام لايتعلق به الغرض ذكر أم لم يذكر ، واما لفظ سبق في الكلام مايشير إليه أو يدل عليه .

وكثيراً مايجري التعبير القرآني على صور من الايجاز والاكتفاء لاتحيط بها قواعد النحو ، مثل الاكتفاء من الجملة الفعلية أو الاسمية بجار ومجرور ، كقوله تعالى في سورة الاسراء :

« إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَاْتُمْ فَلَهَا » [3].

ولننظر في قوله تعالى في سورة البقرة :

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً » [4] .

فقد اكتفى من جملة الجواب بالحال دون ذكر الفعل وفاعله

---

(١) الآية / ١٦٨

(٢) الكشاف ج ٢ ص / ١٠١

(٣) الآية / ٧

(٤) الآية / ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

ومفعوله ، لأنه معلوم لاحاجة لذكره .

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الانعام :

« وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْسُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَاللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِين » (١) .

فان جواب الشرط الأول والثاني لم يذكر مع أنه لم يسبق له ذكر ومع ذلك فمعناه مفهوم مستفاد من العبارة بجملتها .

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة النور :

« وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وانَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ » (٢) .

وشبيه به في الاكتفاء بما يتعلق به الغرض ، قوله تعالى في سورة المعارج :

« إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ،وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً » (٣)

ذلك أن فعل الكون واسمه مما لاحاجة لذكره لأن الكلام يدل عليه فاكتفي بقيده المعنوي وهو الخبر لأن الجملة كلها مسوقة للنص عليه .

واذا جاز ذلك في فعل الكون وفي مايشتق منه ، لأنه يدل على العموم ويمكن ان يستدل عليه من السياق ، فقد ورد في غيره

---

(١) الآية / ٣٥

(٢) الآية / ٢٠

(٣) الآيات / ١٩ - ٢٠

من الافعال اذا علم معناها واستدلّ عليه من السياق .

قال تعالى في سورة التوبة :

« كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فيكم إِلّاً ولا ذِمَّةً »[1] .

يقول الزمخشري : « كيف تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد ، وحذف الفعل لكونه معلوماً » .

تلك أمثلة للايجاز بالحذف لم يستقصها النحاة ولم يحيطوا بها ذكراً ، ولعلهم وجدوها تخالف ما ألزموا به أنفسهم من لزوم ذكر العمدة في الكلام ، ولو أنهم التزموا أسلوب البحث العلمي لجعلوا من كل تلك الاستعمالات القرآنية أسساً لقواعدهم ولأوسعوا بذلك مجال التصرف في فنون التعبير ، ولأفسحوا طريق الاقتداء بأساليب العبارة القرآنية مما يزيد صور التعبير نماء وثراء .

(١) الآية / ٩

الفصل الخامس

حروف الجر

إن من اهم وسائل التعبير الدقيق اتقان استعمال الحروف ، ولاسيما حروف الجر . فان لها معاني يتميز بعضها عن بعض بحيث تؤدي ادق المعاني لوجاء الحرف في موضعه .

وأعقد مافي حروف الجر أنها كثيرة ، وأن لكل منهـــا في الغالب اكثر من معنى واحد .

وكثيرا ما تتداخل تلك المعاني وتختلط على غير الخبير بالأساليب البليغة المأثورة .

وظيفة حروف الجر في الجملة العربية إبلاغ معنى الفعل أوماهو في حكمه الى صورة من صور المفعول أي المتأثر بالفعل ، وهذه الصور عديدة عدد حروف الجر ، فمنها صورة المفعول به والمفعول فيه

والمفعول له والمفعول منه والمفعول عنه والمفعول إليه والمفعول عليه .

والمقصود بما هو في حكم الفعل الأسماء المشتقة والمصادر ، سواء منها ما يجب ذكره ان كان من قبيل الكون الخاص وهو سائر الأفعال ، أم ما يجب أو يجوز حذفه ان كان فعل الكون العام وما يشتق منه كالذي يتعلق به الجار والمجرور والظرف .

وحروف الجر قيود معنوية قد يقتضي المقام إثباتها وقد يحتمل حذفها والاستغناء عنها .

ولنضرب لذلك مثلا بحرف كثير التداول شائع الاستعمال وهو « في » المستعمل لمعنى الظرفية ، فانه يحذف باطراد إذا كان ما بعده اسماً دالا على معنى الزمان أو المكان فيقال له الظرف ويذكر غالباً إن لم يكن الاسم من الظروف المختصة على حد ما يقول النحاة .

والأصل والأساس أن تثبت حروف الجر لأنها حروف معان لا يفهم مدلولها إلا إذا ذكرت . ويزعم النحاة أنها يجوز حذفها في حالة عبروا عنها بقولهم : إذا تعين الحرف ومكان الحذف . وعدوا كل ما عدا ذلك شذوذاً مقيداً بالسماع لا يجوز أن يقاس عليه واستشهدوا لمثل ذلك بقول القائل :

لَدنٌ يَهُزُّ الكَفَّ يَعْسُلُ مَتْنَهُ ... فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلب[1]

(1) البيت لساعدة بن جؤية ، وهو من شواهد الكتاب ، ج ١ ص / ١٦ ثم / ١٠٩

على ان العبارة القرآنية تؤسس قاعدة اوسع واشمل وتفضي إلى أساليب في التعبير رحيبة منطلقة ، دقيقة في الوقت نفسه متقنة .

قال تعالى :

« قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . » (١)

ومعلوم أن قعد لايتعدى بنفسه وانما يصل الى ما بعده بحرف الجر ولذلك يقول الزمخشري : « وانتصابه على الظرف كقوله كما عسل الطريق الثعلب ، وشبهه الزجاج بقولهم ضُرِبَ زيدٌ الظهرَ والبطنَ أي على الظهر والبطن » (٢) .

وقال تعالى في سورة التوبة :

« فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ . » (٣)

يقول الزمخشري : « وانتصابه على الظرف كقوله لأقعدن لهم صراطك المستقيم » . (٤)

وتوجيه الظرفية لايتأتى في كل موضع ، بل إن بعض المواضع يأباه . من ذلك قوله تعالى في سورة ابراهيم :

« الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

---

(١) سورة الاعراف ، الآية / ١٦ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص / ٥٦

(٣) الآية / ٥

(٤) الكشاف ج ٢ ص / ١٤٠

ويَبْغونَها عِوجاً . » (١)

فيقول فيه الزمخشري : « والأصل (كذا ! ؟) ويبغون لها عوجاً فحذف الجار وأوصل الفعل » (٢) .

وواضح أن التماس معنى الظرفية يدخل المسألة في باب القياس لأن الظرف كما يعرفونه : « وقت أو مكان ضمن معنى (في) باطراد » وليس في ما عدا ذلك متسع للقياس عندهم .

ومما يقذف بالنحاة في لجج الحيرة والتخبط قوله تعالى في سورة النساء :

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ،وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ » (٣) .

لأن الفعل « رغب » يصل الى المفعول بحرفين يؤديان معنيين متعاكسين ولابد من ذكر أحدهما إذا أريد معنى بعينه ، فاذا قيل « رغب في » دل على معنى الرغبة الايجابية ، واذا قيل « رغب عن » دل على معنى الرغبة السلبية ، وحذف الحرف هنا يوقع في اللبس على حد ما يزعمون ، يقول ابن مالك (٤) :

وَعَدِّ لازِماً بِحَرْفِ جَرِّ　　　فإنْ حُذِفْ فَالنَّصْبُ للمُنْجَرِّ

---

(١) سورة ابراهيم ، الآية / ٣

(٢) الكشاف ج ٢ ص / ٢٩٣

(٣) سورة النساء ، الآية / ١٢٧

(٤) شرح ابن عقيل ج ١ ص / ٢٠٩

نقلاً وفي أَنَّ وَأَنْ يَطّــــردُ مَعْ أَمنِ لبسٍ كعجبتأَنْ يَدوا

ولذلك يقول الزمخشري في توجيه هـذه المسألة : « يحتمـل في أن تنكحوهن لجمالهن وعن أن تنكحوهن لدمامتهن » (١) .

وكان بعض أساتذتنا يذهب في تأويل هذه الاية مذهبـــــاً اخر فيقول : إن الرغبة ههنا « في » أو « عن » مستوية ،ومن أجل ذلك حذف حرف الجر (٢) .

واحسب ان الامر هنا ايسر مما يذهبون اليه ، لان معنى الفعــــل اصلا هو المعول عليه ، والحرف هو الذي يحدد علاقته بالمفعـول سلباً أو إيجاباً ، والأصل في الرغبة أن تكون ميلا ايجابياً الى المرغوب ، أي أن تكون رغبة في الشئ .

إما الرغبة عن الشئ فهي الفرع الذي لايعرف إلا بذكـــــر الحرف « عن » وهذا المعنى هو الذي يقتضي إثبات الحرف أمـا حذف الحرف فيصرف معنى الفعل الى أصله وهو الرغبة في الشئ وإذن فلا محال للالتباس على الاطلاق .

وصفوة القول إن حروف الجر بمعانيها العديدة من ظرفيـــة وابتداء غاية واستعلاء ومحاوزة ونحو ذلك إنما تقوم بوظيفـــة في الكلام معنوية بالدرجة الاولى وهي تحديد علاقة الفعل بما يتأثـــر

(١) الكشاف ج ١ ص / ٣٠١

(٢) ذلك أستاذنا طه الراوي عليه رحمة الله .

به وهو في الحقيقة مفعول كما سلف القول .

وقد يعدل أحياناً عن هذا التحديد بقصد إطلاق الفعل من القيد المعنوي بحرف الجر كالذي في قوله تعالى :

« وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ . »(١)

فان المقصود هنا إطلاق المعنى من قيد الظرفية أو الاستعلاء اونحو ذلك على خلاف ما ذهب إليه الزمخشري حيث ذكر أنه منصوب على الظرفية ، وإنما المقصود التوسع الذي يشير إليه بعض النحاة حين يقولون باسقاط حرف الجر توسعاً .

وقد نجد في العبارة القرآنية عكس هذا الاستعمال فعلا يصل إلى مفعوله بنفسه عادة ، ثم يراد تقييد وصوله إلى المفعول بمعنى من المعاني التي يدل عليها حرف من حروف الجر كما في قوله تعالى في سورة النور :

«فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»(٢)

فمعنى « عن » هنا مقصود تقيد الفعل به ليستفاد مع المخالفة معنى الاصرار والعناد والاعراض عن امر الله قصداً ، والافالمخالفة المطلقة قد تكون عن غفلة أو جهل أو عدم مبالاة ، وهي إذن لاتنطوي في حكم أن تصيب المخالف فتنة أو يصيبه عذاب أليم .

---

(١) من الآية / ٥ ، سورة التوبة .

(٢) الآية / ٦٣

ولهذا نجد العبارة القرآنية تتصرف في حروف الجر تصرفاً لاتوافقه قواعد النحو ، ولا أصول اللغة التي قصرت في الاحاطة به فانتقصت من الدقة في اداء المعاني على الوجه الذي أدته العبارة القرآنية ، ولقد فطن الزمخشري إلى شئ من هذا فقال في قوله تعالى من سورة النمل :

«حَتَّىٰ إِذا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ»(1).

فإن قلت : لم عُدِّي «أتوا» بـ «على» قلت : يتوجه على معنيين أحدهما : إن إتيانهم كان من فوق فأتي بحرف الاستعلاء كما قال أبو الطيب :

« ولَشَدَّ ما قَرُبت عَلَيك الانْجُمُ » (2).

لما كان قرباً من فوق .

والثاني : أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره (3) .

ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة القصص :

« وَدَخَل المَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَد فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتتلانِ » (4).

فان « حين » اسم زمان ، والفعل إنما يصل إليه عادة بحرف الظرفية «في» ولكن هذا الدخول كان أيضاً من فوق أشبه شئ بالانقضاض

---

(1) الآية / 15

(2) ديوان المتنبي (شرح العكبري) ج 3 صفحة / 130

(3) الكشاف 3 / 137

(4) الآية / 15

ومعنى الاستعلاء هنا يشعر بالمفاجأة والمباغتة وكل هذا لايتـــاتى من حرف الظرفية سواء ذكر أم حذف .

على أن بعض النحاة يسمى مثل هذا الاستعمال التضمين ويريد به تضمين الفعل معنى فعل آخر قريب منه في معناه ، وفي هـــذا مافيه من إخلال بدقة المعنى وعبث بالمدلول اللغوي لكل لفظ من الألفاظ .

والى ذلك يذهب الزمخشري أحياناً ، كالذي ذهب إليـــه في قوله تعالى من سورة الأحزاب :

« إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَعْرُوفاً » . (١)

فقال :

« وعدي (تفعلوا) بـ (إلى) لأنه في معنى تسدوا وتولوا »(٢) .

والظاهر أن الفعل في كل موضع بمعناه لايخرج عليه وإنما يقيد المعنى بالحرف كما أسلفنا ، ومما يؤيد ذلك ويدل عليه قوله تعالى في سورة الصافات :

« فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ ، مَالَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ . » (٣)

---

(١) الآية / ٦

(٢) الكشاف ج ٣ صفحة / ٢٢٨

(٣) الآيات ٩١ - ٩٣

فقد جيء بـ « الى » اولا لأن المعنى المقصود انتهاء الغاية والفعل « راغ » يصل إلى مفعوله بها في العادة .

ثم لما اريد معنى الاستعلاء الذي يوافق روغ الضارب المستولي على ما يضرب جيء بـ « على » والفعل هو هو لم يتغير ولم يتحول عن مدلوله اللغوي .

ويزيد ذلك إيضاحاً فعل كثير الاستعمال وهو « مر » فانه يصل إلى المفعول عادة بحرف الالصاق وهو الباء ، قال تعالى :

« وَإِذَا مَرُّوا بهم يَتَغَامَزُونَ » (١) .

ولكن حين يراد المرورالفوقي الذي لايتلبث ولا يلتصق يؤتى بعلى كقوله تعالى في سورة الصافات :

« وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصبحينَ ، وَبِالليلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ » (٢) .

وكقوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » (٣) .

ومما يشعر بقيمة حرف الجر ومكانه في العبارة ما جاء في قوله تعالى في سورة ص :

« إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتّى تَوارَتْ بِالحِجَابِ » (٤) .

---

(١) سورة المطففين ، الآية / ٣٠
(٢) الآية / ١٣٧ ، ١٣٨
(٣) سورة يوسف ، الآية / ١٠٥
(٤) الآية / ٣١ ، ٣٢

وقوله تعالى في سورة فصلت :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لاَتَسْمَعُوا لِهَٰذَا القُرآنِ وَٱلغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تغْلِبونَ »(١).

وقوله تعالى في سورة الأحقاف :

« قَالَ ربِّ أوزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَليَّ وعَلىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي »(٢).

فكل حرف من هذه الحروف يغني عن جملة ويوحي معناه بأكثر مما ألف اهل العربية ان يستدلوا عليه ، ولذلك يقول الزمخشري في الاية الأخيرة : فان قلت ما معنى « في » في قوله تعالى :

« وأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي » قلت : معناه أن يجعل ذريته موقعاً للصلاح ومظنة له كأنه قال: هب لي الصلاح في ذريتي واوقعه فيهم(٣).

أولا ترى أن « عن » في قوله تعالى :

« فقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ ربِّي »(٤). تساوي أن يقول القائل إني أحببت حب الخير وأعرضت وصددت عن ذكر ربي ، وكل هذا مستفاد من الحرف وحده ؟ وهل يكون قول القائل لاتسمعوا هذا القرآن مساوياً من حيث القصد لقوله تعالى :

---

(١) الآية / ٢٦

(٢) الآية / ١٥

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٤٤٦

(٤) سورة (ص) ، الآية / ٣٢

« لاَ تَسْمَعُوا لِهذَا القُرْآنِ (١)» .

اليس في اللام إشعار بان القصد لاتنصتوا له ولاتصغوا إليه ؟ أي أن السماع مجرداً لايمكن أن يكون موضع النهي لأنه قد يتعرض له كل واحد ، وإنما الذي ينهي عنه الذين كفروا السماع المقترن بالانتباه والاصغاء والانصات .

على أن الذي ينعم النظر في كلام النحاة على حروف الجـــــر يتبين انهم معنيون بجانب الاعراب قبل كل شيء ، أما جانـــــب المعنى فامره عندهم هين ، إذ يقع الحرف عندهم موقع حـــرف آخر ، او يضمن الفعل معنى فعل قريب من معناه . وهذا يـــدل بوضوح على تجاهل الجانب اللغوي وانعزال قواعد النحوومسائله عنه كأن التركيب مؤلف من مفردات تجردت عن مدلولاتهـــا اللغـــــويــة .

(١) من الآية / ٢٦ ، سورة فصلت

الفصل السادس

غَيْرُ وَسِوَى

إن الكلام على إهمال الجانب اللغوي في قواعد النحو ومسائله يجر الى امر يبدو فيه هذا الاهمال او التجاهل في صورة واضحة كل الوضوح . ذلك ان حروف الجر ونحوها قد يغتفر فيها على نحو ما إغفال مدلولها اللغوي ومعناها الذي وضعت له لأنها كما يقولون تؤدي معانيها في غيرها كسائر الحروف .

ولكن الذي لايمكن ان يقبل في العقل أو الواقع تجريد الأسماء او الأفعال من معانيها والحاقها قسرا بالأدوات التي يباعد استعمالها استعمال الحروف بينها وبين ما وضعت له أصلا ، ومن ذلك أنهم يعدون (غير وسوى) أداتين للاستثناء ، ثم يرتبون على ذلك أموراً في الاعراب ما أنزل الله بها من سلطان ، فيقولون في

« غير » إنها تعرب إعراب ما يقع بعد « إلا » لوحلت محلها .

ويقولون في « سوى » إنها تعرب إعراب الظرف على رأي بعضهم وإعراب « غير » بالحكم الذي سبق بيانه .

أما « سوى » فمادتها اللغوية تدل على أن معناها نقيض معنى « غير » ولم ترد في الكتاب العزيز الا بهذا المعنى :

« فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَ نُخْلِفُهُ نحنُ ولاَ أنْت مكَاناً سُوىً »(١).

والمد لغة فيها كما يقول ابن مالك في الألفية (٢) ، قال تعالى:

« قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلىٰ كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ »(٣).

ولم أجدها في شواهدهم بمعنى الاستثناء إلا في قول الفند الزماني :

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى العُدْوا ... نِ دِنَّاهُمْ كمَا دانُوا (٤)

وتفسير ذلك آت بعد .

أما « غير » فهي في أصلها وحقيقتها وصف كـ « مثل » تقع صفة أو حالا كسائر الأوصاف ،وقد تقوم مقام الموصوف فتعرب حسب موقعها من الكلام .

قال تعالى :

---

(١) سورة طه ، الآية / ٥٨

(٢) بقوله : ولسوى سوى سواء اجعلا ... على الاصح مالغير جعلا
شرح ابن عقيل ص/٢٤٥

(٣) سورة آل عمران ، الآية / ٦٤

(٤) شرح الحماسة ، للمرزوقي ج ١ صفحة / ٣٥ .

« كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العذابَ » (١).

وقد نص الزمخشري على ذلك مع قوله بنصبها على الاستثناء في قوله تعالى :

« لا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ منَ المُؤْمِنِينَ غَيرُ أُولِي الضَّرَرِ والمُجاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ بأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِم (٢)» .

فقال في« غير » : قرئ بالحركات الثلاثة فالرفع صفة لـ:«القاعدون» ، والنصب استثناء منهم أوحال عنهم ، والجر صفة للمؤمنين (٣) .

وقال في قوله تعالى من سورة المائدة :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعامِ إلاَّ ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وأَنْتُمْ حُرُمٌ » (٤) . غير محلي الصيد نصب على الحال من الضمير في لكم (٥) .

والى مثل ذلك ذهب الفراء ، وزاد الأمر ايضاحاً فاشار الى معنى الوصفية فيها ، وعرض لمعنى الاستثناء فاطرحه ولم يأخذ به ، قال :

« لا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولي الضَّرر والمجاهِدُونَ » (٦) .

برفع « غير » لتكون كالنعت للقاعدين كما قال تعالى :

---

(١) سورة النساء ، الآية / ٥٦.
(٢) سورة النساء ، الآية ٩٥
(٣) الكشاف ج ١ ص / ٢٩١ .
(٤) الآية / ١
(٥) الكشاف ج ١ ص / ٣٢٠
(٦) سورة النساء ، الآية / ٩٥

« صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ »(١).

وكما قال تعالى :

« أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ » (٢).

وقد ذكر أن « غير » نزلت بعد ان ذكر فضل المجاهد على القاعد فكان الوجه فيه الاستثناء والنصب .

إلا أن اقتران غير بالقاعدين يكاد يوجب الرفع لان الاستثناء ينبغي أن يكون بعد التمام ، فتقول في الكلام « لايستوي المحسنون والمسيئون إلا فلاناً وفلاناً » .

وقد يكون نصباً على أنه حال كما قال :

« أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ »(٣).

ولو قرئت خفضاً لكان وجهاً تجعل من صفة المؤمنين (٤) .

واحسب أن الذي حملهم على إدراجها في باب الاستثناء هو مدلولها اللغوي الذي يشتمل على معنى المخالفة ، هذا من جهة ، ووقوعها منصوبة على الخلاف في مواضع بعينها من جهة أخرى ، على أن رعاية الجانب اللغوي تنفي هذا الذي ذهبوا اليه تمام النفي ويتجلى ذلك اوضح ما يكون في العبارة القرآنية التي لم ترد فيها «غير»

(١) سورة الفاتحة ، الآية / ٧
(٢) سور النور ، الآية - ٣١
(٣) سورة المائدة الآية - ١
(٤) معاني القرآن ص / ٢٨٣ - ٢٨٤

إلا وصفا على سبيل النعت او على سبيل الحال كما اسلفنا ، أو حالة محل الموصوف ، واقعة موقعه من الكلام ، من ذلك قوله تعالى في سورة الانعام :

« قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضِ » (١).

وفي سورة الاعراف :

« قالَ أَغيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلىٰ العَالَمِينَ » (٢).

وفي سورة التوبة :

« فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَكُمْ غيْرُ مُعجِزِي اللهِ » (٣)

وفي سورة آل عمران :

« وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ باللهِ غَيْرَ الحَقِ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ »(٤).

وفي سورة هود :

« فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ » (٥) .

أما سوى فلم ترد في العبارة القرآنية على الوجه الذي يزعم النحاة أبداً ، بل لقد التفت الفراء إلى الجانب اللغوي فيها فنفى أن تكون « غير » بمعناها ، فقال في قوله تعالى من فاتحة الكتاب :

---

(١) الآية / ١٤
(٢) الآية / ١٤٠
(٣) الآية / ٢
(٤) الآية / ١٥٤
(٥) الآية / ٦٣

« غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولاَ الضَّالينَ . »

واما قوله تعالى « ولا الضالين » فانمعنى « غير » معنى « لا »فلذلك ردت عليها ، هذا كما تقول :فلان غيرمحسن ولا مجمل فاذا كانت « غير » بمعنى « سوى » لم يجز أن تكر عليها « لا » . ألا ترى أنه لايجوز عندي سوى عبدالله ولازيد .

وقد قال بعض من لايعرف العربية: إن معنى « غير » في الحمد معنى سوى » وان « لا » صلة في الكلام (١).

وواضح ان الفراء يلحظ الفرق بين « غير » و « سوى » وينكر ما يذهبون اليه من استعمالهما بمعنى واحد ، وقوله في من ساوى بينهما في المعنى ـ انه بعض من لايعرفالعربية ـ دليل علىان احساس المعنى اللغوي وتصوره عند الاستعمال أو عند التفسير والاعراب أمر لابد منه عند من يفقه العربية ويعيها ويشعر بها .

ولو صح أن « سوى » تستعمل في صورة من صور الاستثناء لكان هذا المعنى مستفاداً من السياق لامن الأصل اللغوي .

فلو قال قائل ماجاءني سوى زيد ، لكان معناه ابتداء ما جاءني مثل زيد وهذا قد يعني تبعاً أن زيدا مستثنى من حكم النفيفي الفعل على وجه يشبه معنى المجاز أو الاتساع في الكلام .

---

(١) معاني القرآن ج ١ ص ٨ .

هكذا تؤصل العبارة القرآنية اساساً للقاعدة النحوية تنفي عنها كل ما يجانب الدقة في استعمال الألفاظ . وتثبت أن العربية لا يمكن أن تهمل جانب المدلول اللغوي في الألفاظ والأدوات لأن اهماله يفضي إلى التهاون في دقة التعبير وفي أداء المعاني على الوجه الصحيح .

الفصل السابع

المصدر وحروفه

المصدر لفظ واسع الدلالة كثير تداوله في الكلام ، لأن فيه من الاسم والفعل خصائص ومعاني عدة ، فهو على الرأي الراجح أصل ترجع إليه الافعال ويشتق منه كثير من الاسماء .

وهو أيضاً اسم ذو علاقة بأسماء الذوات ثم تطورت دلالته حتى أصبح يدل على المعنى أو ما يقال له عند النحاة معنى الحدث لأن الأصل في ألفاظ اللغة أنها توضع للمحسوس ثم تتحول عنه الى المدرك بالعقل .

والعبارة القرآنية تتداول استعمال المصدر بصورتيه الصريح والمؤول تداولا واسعاً .

وتتسع في وظيفته في الكلام بحيث يرد عاملا عمل الفعل

على غير الصورة التي يشترطها النحاة وهي إمكان وقوع أن والفعل أوما والفعل موقعه ، قال تعالى :

« قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً »(١) .

وواضح هنا أن « جزاء موفوراً » منصوب بـ « جزاؤكم » ولكن الزمخشري سيراً على سبيل النحاة الذين لايجيزون لمثل هذا المصدر أن يعمل لأنه لاينحل الى الحرف المصدري والفعل ، يذهب الى أنه منصوب بفعل مضمر ، يقول : وانتصب جزاء موفوراً بما في (فان جهنم جزاؤكم) من معنى تجازَوْن أو باضمار تجازَوْن او على الحال (٢) .

ولكنه لايلبث أن يسلم بعمل المصدر غير القابل للتأويل بالحرف المصدري والفعل في موضع آخر ، في قوله تعالى من سورة النبأ :

« لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً ، جَزَاءً مِن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً » (٣) .

يقول الزمخشري : عطاء نصب بجزاء نصب المفعول به أي جزاهم عطاء (٤) .

ومن لطائف الاستعمال القرآني كثرة ورود المصدر وصفاً إما على سبيل الاسناد خبراً ، أو على سبيل النعت أو الحال .

قال تعالى في سورة الاسراء :

(١) سورة الاسراء ، الآية ٦٣

(٢) الكشاف ج ٢ ص / ٣٦٦ - ٣٦٧

(٣) سورة النبأ ، الآية / ٣٥ - ٣٦

(٤) الكشاف ج ٤ ص / ١٧٩

« نَحْنُ أَعْلَمُ بما يَسْتَمِعُونَ به إذْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ وإذ هُمْ نَجْوىٰ » (١).

و قال تعالى في سورة الكهف :

« فَعَسَىٰ ربّي أَنْ يؤْتِيَنِي خيراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرسِلَ عَلَيها حُسْباناً مِنَ السَّماء

« فتُصبحَ صَعِيداً زلَقاً أَوْ يُصبحَ ماؤُها غوراً فلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً » (٢) .

والمصدر في الاية الأولى خبر المبتدأ ، وهم يزعمون أن اسم المعنى لايخبر به عن اسم الذات فتأمل .

وفي الاية الثانية خبر الفعل الناسخ .

وقال تعالى في سورة الفرقان :

« وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلىٰ الأَرضِ هَوْناً (٣) » .

يقول الزمخشري : هوناً حال أو صفة للمشي ، . . . إلا أن في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة (٤) .

وهذا ديدن النحاة إذ إنهم يجنحون إما الى التأويل بتقدير مضاف حتى يكون هو والمصدر صالحاً لوصف اسم الذات أو الاخبار عنه ، وإما الى تفسيره على صورة المبالغة والمجاز . على أن شيوع هذا الاستعمال ووفرته يشعران بأن التأويل والتقدير وصرف المعنى الى المجاز والمبالغة أمور لاضرورة لها ولاسبب ، بل

(١) سورة الاسراء ، الآية / ٤٧

(٢) الآية / ٤٠ ، ٤١

(٣) الآية / ٦٣

(٤) الكشاف ج ٣ ص / ١٠٣

إنها قد تخرج العبارة عن المعنى الذي قصدت إليه، وتأمل بعد ذلك هذه الأمثلة، قال تعالى في سورة الملك:

« فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا (١) ».

وقال تعالى في سورة الجن:

« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (٢) »

ومن مظاهر الدقة التصرف في الحروف المصدرية تصرفاً يدل على فوارق لطيفة بين معانيها، فـ « ما » غير « أن » و « لو » غيرهما ذلك أن « ما » لا تقيد الفعل بعدها بزمن، وانما هي والفعل بمثابة الصلة والموصول، وهي كثيرة الورود في آي الكتاب الحكيم، قال تعالى في سورة آل عمران:

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ » (٣)

وفي سورة التوبة:

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ » (٤).

وفي سورة ص:

« بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٥) ».

---

(١) الآية / ٢٧
(٢) الآية / ١
(٣) الآية / ١١٨
(٤) الآية / ١٢٨
(٥) من الآية / ٢٦

وفي سورة السجدة :

« فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » (١) .

و « ما » حقاً موصول حرفي لأنه يلحظ فيه معنى الموصولية وفي الفعل الذي بعده معنى الصلة ، وكثيراً ما يصلح لتوجيه معناه وجهة الاسمية .

اما « لو » فملحوظ معناها الأصلي وهو الامتناع والاستحالة قال تعالى :

« وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ » (٢) .

وقال تعالى في سورة الاحزاب :

« يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ » (٣).

وتتجلى خصوصية « أن » في الاستعمال القرآني ، فهي كما قالوا تخلص ما بعدها لمعنى الاستقبال ،ولا ترد في غير هذا المعنى ، وترد اللام في موضعها أحياناً لأن اللام تدل على الاستقبال قال تعالى في سورة التوبة :

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحَيَاة

---

(١) من الآية / ١٤

(٢) من سورة البقرة ، من الآية / ٩٦

(٣) الآية / ٢٠

الدُّنيا » (١) .

وفي سورة الصف :

« يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ » (٢) .

وفي سورة الأحزاب :

« إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُم الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ » (٣) .

قال الفراء في قوله تعالى :

« يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ » (٤) .

وقال في موضع آخر :

« واللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ » (٥) .

والعرب تجعل اللام التي على معنى كي في موضع « أن » في : « أردت وامرت » فتقول : أردت أن تذهب واردت لتذهب وامرتك أن تقوم ، وأمرتك لتقوم ، قال تعالى :

« وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ » (٦) .

وقال في موضع آخر :

---

(١) الآية / ٥٥

(٢) الآية / ٧

(٣) الاية / ٣٣

(٤) سورة النساء ، من الاية / ٢٦

(٥) سورة النساء ، من الاية / ٢٧

(٦) سورة الانعام، الاية / ٧١

« قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ (١)» .

وقال :

« يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا (٢)» . و « يريدون أَنْ يُطْفِئُوا (٣)» .

وانما صلحت اللام في موضع « أن » في أمرتك وأردت ، لأنهما يطلبان المستقبل ولايصلحان مع الماضي ، ألا ترى أنك تقول أمرتك أن تقوم ولا يصلح أمرتك أن قمت ، فلما رأوا « أن » في غير هذين تكون للماضي والمستقبل استوثقوا لمعنى الاستقبال بكي وباللام التي في معنى كي (٤) .

وقد يحذف الحرف المصدري استغناء عما يدل عليه من معنى في الفعل بعده ، إذ إنه قد يرد لمحض الوصل بين فعلين ، أولجعل الفعل في موقع الاسم .

قال تعالى في سورة الأنفال :

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥) » .

يقول الزمخشري : وقيل فيه أصله ؛ « أن سبقوا » فحذفت « أن » كقوله :

---

(١) سورة الانعام ، الاية / ١٤

(٢) سورة الصف ، من الاية /٧

(٣) سورة التوبة ، من الاية / ٣٢

(٤) معاني القرآن ص /٢٦١-٢٦٢

(٥) سورة الانفال ، الاية / ٥٩

« وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ٱلبَرْقَ » (١) .

وهذا يدل أيضاً على مبلغ مابين الفعل والاسم من علاقة تسمح بأن يكون الفعل في موضع الاسم ، ويدل أيضاً على موقع المصدر وسطاً بين الاسم والفعل ، بحيث يحل أحدهما محل صاحبه ويعمل عمله ويقوم بوظيفته في الكلام .

(١) الكشاف ج٢ص / ١٣٢

الفصل الثامن

اسم الفاعل

ومما يلاقي الفعل ويعمل عمله في كثير من الأحيان ما يعرف عند النحاة باسم الفاعل ، ولسنا بصدد بحثهم في اسميته وفعليته واختلافهم في ذلك ومذهب أهل الكوفة في نعته بالفعل الدائم لأن جانب الاسمية فيه بين لا مراء فيه بدليل نقله الى العلمية كخالد وعامر وسالم ونحو ذلك ، ووقوعه موقع المسند إليه واضافته والاضافة إليه واتصاله بأل .

أما إعماله إعمال الفعل فمرده في الحقيقة الى معنى الحدث الذي يقتضي وجود المحدث بالضرورة وهو الفاعل في الاصطلاح النحوي ، ثم قد يقتضي وجود ما يؤثر فيه وهو المفعول .

أما زعمهم بأن اسم الفاعل يعمل لأنه يحمل على الفعل

المضارع من جهة لفظه ومن جهة معناه فمتهافت لايقوم للاحتجاج لأن الموازنة اللفظية المدعاة غير قائمة في اسم المفعول الثلاثي وهو أيضاً مستحق للعمل، وكذلك الصفة المشبهة. وأما من جهة المعنى التي يريدون بها دلالة كليهما على معنى الحال أو الاستقبال فهي مردودة بكونه اسماً لايلزم فيه أن يتضمن معنى الزمن لأنه دلالة مختصة بالأفعال.

وقد زعموا أن اسم الفاعل لايعمل اذا دل على المضي وإنما يضاف الى المعمول، ولكن الاستعمال القرآني ورد بخلاف ذلك قال تعالى في سورة الكهف:

« .... وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالوَصِيدِ » (١).

وهم يوجهونها على انها حكاية حال ماضية لأن اسم الفاعل لايعمل إذا كان في معنى المضي (٢).

ومما ينقض قولهم هذا ماورد في سورة الانعام:

« إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيتِ مِنَ الحيِ ذلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُون ، فَالِقُ الإِصْباحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَناً والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيم» (٣).

---

(١) من الاية / ١٨

(٢) الكشاف ج٢ ص / ٣٨٣

(٣) الاية / ٩٥ ، ٩٦

فانت ترى انه عطف بالنصب على المجرور باضافة اسم الفاعل اليه لأنه - في زعمهم - بمعنى المضي بدليل قراءة من قرأ :

« وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً »

على أنهم يقدرون لنصب «الشمس» فعلا ماضياً لتستوي القاعدة .

ولكن ماذا يقولون في نصب المفعول الثاني باسم الفاعل الذي لايجوز - عندهم - أن يعمل وهو قوله تعالى :

« وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سكناً » (١).

وأكثر مايرد اسم الفاعل في العبارة القرآنية مضافاً الى معموله كقوله تعالى في سورة الانعام :

« وَهَٰذا كِتابٌ أَنزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » (٢) .

وفي سورة آل عمران :

« رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ » (٣) .

وفي سورة هود :

« وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ اللهِ وَمَا أَنا بِطارِدِ ٱلَّذِين آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُورَبِّهِمْ » (٤) .

وكثيراً ماترد القراءة بنصب المعمول كما في الاية السالفة فقد

(١) سورة الانعام ، من الاية /٩٦

(٢) الاية /٩٢

(٣) الاية / ٩

(٤) الاية / ٢٩

قرئ وما انا بطارد ٍ الذين آمنوا بالتنوين على الاصل (١).

وقوله تعالى في سورة مريم :

« إنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوات ِ وَالأَرضِ إلا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً » (٢).

قال الزمخشري : وقرأ ابن مسعود وابو حيوة : آتٍ الرحمنَ على اصله قبل الاضافة (٣).

وقد يكون المشهور الاعمال ويقرأ بالاضافة كما في قوله تعالى ، في سورة الشعراء :

« لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونوا مُؤْمِنِينَ » (٤).

قال الزمخشري : وعن قتادة رضي الله عنه : باخعُ نفسِك على الاضافة (٥).

ويبدو لمن يستقصي استعمال اسم الفاعل في آي الكتاب الحكيم أن اضافته الى معموله هي الشائعة الذائعة، وحتى المواضع التي ورد فيها منوناً منصوباً معموله قد قرئ فيها بالاضافة .

ولعل أكثر ماترد الاضافة حين يكون المعمول ضميراً لما في ذلك من التسهيل والخفة كقوله تعالى في سورة آل عمران :

« إذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسىٰ إنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٢١٤

(٢) الاية / ٩٣

(٣) الكشاف ج٢ ص / ٤٢٥

(٤) الاية / ٣

(٥) الكشاف ج٣ ص / ١٠٧

وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا »[1] .

وفي سورة القصص :

« ... وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرْسَلِينَ »[2].

واكثر مايرد اسم الفاعل منوناً منصوبا عامله حين يقع بينهما فاصل، ومماورد فيه الاستعمالان الاضافة والتنوين في سياق واحد قوله تعالى في سورة العنكبوت :

« وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَاتَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ ، إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ القَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ »[3] .

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الصافات :

« فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا البُطُونَ »[4].

وفي سورة البقرة :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً » [5].

وفي سورة الزمر :

---

(١) سورة آل عمران ، من الاية / ٥٥

(٢) سورة القصص ، من الاية /٧

(٣) الاية / ٣٣ ، ٣٤

(٤) من الاية / ٦٦

(٥) من الاية / ٣٠

« قُلْ إنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللهَ مُخْلِصاً لهُ ٱلدينَ » (١) .

« قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي » (٢).

ولست أجد في دحض ماصنعوا من قاعدة لاعمال اسم الفاعل أوضح من موقف الزمخشري حيث يقول في قوله تعالى :

« إنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها » (٣) .

وقرئ منذرٌ بالتنوين وهو الأصل والاضافة تخفيف وكلاهما يصلح للحال والاستقبال ، فاذا أريد الماضي فليس إلا الاضافة كقولك هو منذر زيد أمس (٤) .

ثم يقول في قوله تعالى من سورة « الكافرون » :

« ولَا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ ، ولَا أَنَا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ » (٥) .

أي وما كنت قط عابداً في ماسلف ماعبدتم فيه يعني لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية فكيف ترجى مني في الاسلام . . أي وما عبدتم في وقت ما ما أنا على عبادته (٦) .

وهذا يدل على أن اسم الفاعل المنون يرد لمعنى المضي خلافاً لما يدعون .

---

(١) من الاية / ١١

(٢) سورة الزمر ، الاية / ١٤

(٣) سورة النازعات ، الاية / ٤٥

(٤) الكشاف ج ٤ ص / ١٨٤

(٥) الاية / ٣ ، ٤

(٦) الكشاف ج ٤ ص / ٢٣٨

اما دلالة المضاف على المعنيين فقد نصوا عليها في أكثر من موضع كما أسلفنا الاشارة .

ولكن المهم في هذه المسألة أن معنى الزمن لايمكن أن يكون جزءاً من اسم الفاعل وإن وردت الدلالة عليه في سياق الكلام لأنه في الحقيقة اسم ، وفيه معنى الحدث الذي يستدعي أحياناً كثيرة معنى الزمن بحكم أنه لازم لوقوع الحدث ، ولكنه زمن غير معين ولا محدد كتحديده في الأفعال ولاسيما بعض الصيغ كالماضي والمضارع حين يقترن بأدوات معينة . على أن ثمة فرقاً بين حالتي التنوين والاضافة ، إذ التنوين يعني انفصاله عن المعمول وأن علاقته به محض علاقة إعمال يغلب فيها شبه الفعل ، بينما الاضافة امتزاج في الدلالة بين الاسمين وضرب من ضروب التعريف ولا عبرة بدعواهم أنها إضافة لفظية لايكتسب الاسم المضاف بها تعريفاً ولا تخصيصاً ودليل ذلك قوله تعالى في سورة غافر :

« حمٓ ، تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ [1]. »

وانظر الى قول الزمخشري في تأويل ذلك وإعرابه ، كيف يتخبط ويتناقض ثم لايجد مندوحة من الاقرار بأن الأمر مشكل لايحل إلا باعراب هـذه الصفات التي لامراء في وصفيتها أبدالا ،

(1) الايات / ١-٣

يقول : فان قلت : كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصوف معرفة يقتضي أن يكون مثله معارف ، قلت اما غافر الذنب وقابل التوب فمعرفتان لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين وأنه يغفر الذنب ويقيل التوب الآن وغداً ، حتى يكونا في تقدير الانفصال فتكون اضافتهما غير حقيقية ، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش .

واما شديد العقاب فأمره مشكل لأنه في تقدير شديد عقابه لاينفك من هذا التقدير . وقد جعله الزجاج بدلا ، وفي كونه بدلا وحده بين الصفات نبوّ ظاهر ، والوجه أن يقال لمّا صودف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة فقد آذنت بأنها كلها أبدال غير أوصاف .... (١)

أما معنى الثبوت والدوام فهو آت من معنى ما اشتق منه اسم الفاعل ، لانه حين يشتق مما يدل على الوصف الثابت يقال له صفة مشبهة كطاهر القلب ونحو ذلك . ثم انه شديد العقاب من باب إضافة الصفة المشبهة الى فاعلها وهي عندهم إضافة محضة .

والصفة المشبهة عندهم هي التي يستحسن أن يجر فاعلها بها

---

(١) الكشاف ج ٣ ص ٣٥٩

وهي من هذه الجهة تخالف اسم الفاعل لأنه يضاف الى مفعولـــه عادة . ولا عبرة بدعواهم أن فاعل الصفــة المشبهة يجوزأن ينصب على التشبيه بالمفعول به لأنه لم يرد في المأثور من كلام العرب. نحو قولهم : زيد حسنٌ الوجهَ ، وقياسهم اياه على زيد حسن وجهـــاً قياس باطل لأن هذا تمييز وهو لابد ان يكون نكرة وهو تمييز محول عن الفاعل كما يقولون . ولا دليل في قول القائل:(وطبت النفس ياقيس عن عمرو) لأن ذلك من الضرورات الشــعرية .

وأظهر مافي العبارة القرآنية أن اسم الفاعل يضاف الى معمو له حين يكون المعمول معرفة بالأداة او بالاضافة أو مخصصـــاً بالاضافة كقوله تعالى في سورة الزمر :

« ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » [٢].

وأكثر مايرد المعمول منصوباً حين يكون نكرة حتى إن الاستعمال يشعر بعدم جواز الاضافة . من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة .

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً » [٢].

وفي سورة ص :

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ » [٢].

---

(١) الاية / ٦٢

(٢) من الاية / ٣٠

(٣) الاية / ٧١

وقد يرد المعمول منصوباً حين يكون معرفة ولكن الأكثر فيه الاضافة كما أسلفنا . ومن ذلك قراءة من قرأ بالتنوين والنصب قوله تعالى في سورة الطلاق :

« وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنْ اللهَ بالِغٌ أَمْرَهُ [1] . »

(٤) الاية / ٣

الفصل التاسع

جملة النفي

الجملة الاسمية المنفية بـ (ليس) أو (ما) اختها يجري عليها عادة ما يجري بنواسخ الابتداء التي تجعل ماكان مبتدأ اسماً لها يبقى على رفعه . وتجعل الخبر لها منصوباً .

وللعبارة القرآنية في هذا الباب خصوصية تلفت النظر وتثير الاهتمام .

ذلك أن الخبر في الجمل المنفية بـ (ليس) يكثر اتصال حرف الجر به ، كقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِنَ الأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا إِنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (1) . »

(1) سورة البقرة ، الاية / ٢٦٦

وقوله تعالى :

« أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ » (1) .

وقوله تعالى :

« أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما في صُدُورِ العالَمِينَ »(2) .

وقوله تعالى :

« أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشاكِرِينَ »(3).

أما أختها (ما) فان اقتران الباء بخبرها يكاد يكون هو الاصل فلم يرد في العبارة القرآنية إلا موضعان تجرد فيهما خبر (ما) من حرف الجر ، وهما قوله تعالى في سورة يوسف :

« فَلَمّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ للهِ ما هٰذا بَشَراً »(4).

وفي سورة المجادلة :

أَلَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِن نِسائِهِمْ ماهُنَّ أُمَّهاتِهِمْ » (5).

والشائع في الاستعمال القرآني نحو قوله تعالى في سورة البقرة:

« وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ(6). »

---

(1) سورة الزمر ، الاية / ٣٦

(2) سورة العنكبوت ، الاية / ١٠

(3) سورة الانعام ، من الاية / ٥٣

(4) الاية / ٣١

(5) الاية / ٢

(6) الاية / ١٤٥

وفي سورة ق :

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » (١) .

وفي سورة النمل :

«وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»(٢).

ويزعم النحاة أن هذه الباء زائدة يراد بها توكيد النفي لأن الموضع نصب ، ولأنها لو حذفت لما تغير في معنى الجملة شيء ، لكن كيف تكون زائدة ويكون موضعها نصباً وهي ترد على هذه الصورة في الاستعمال ؟ وهل يجوز أن يقال إن الأصل عدم وجودها مع ورودها في أكثر المواضع على الوجه الذي سلفت إليه الاشارة ؟

ويكثر في الجمل المنفية ورود (من) ، وهي تتصل باسم (ما) كثيراً كقوله تعالى في سورة المائدة :

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ »(٣).

وفي سورة يونس :

« مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ . » (٤)

وفي سورة السجدة :

---

(١) الاية / ٤٥

(٢) الاية / ٩٣

(٣) الاية / ٧٣

(٤) الاية / ٢٧

« مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ » (١).

وكثيراً ما تتصل (من) بفاعل الفعل المنفي كقوله تعالى في سورة النور :

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً » (٢).

وفي سورة المائدة :

« أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ » (٣).

وتدخل « من » ايضاً على المفعول في الجملة المنفية ، كقولـــه تعالى في سورة هود :

« وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » (٤).

وفي سورة يونس :

« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ » (٥).

والنحاة يزعمون أن الباء و « من » في كل ما ألمحنا إليه ونحو ذلك زائدة ، لأن الاعراب في كلٍّ إما نصب واما رفع . والجر لا يتأتى بالقياس الى مارسموا من حدود الاعراب ، لأنه في أصله صورة من صور المفعولية لايباشر الفعل فيها مفعوله وانما يتوصل الفعل

---

(١) الاية / ٤

(٢) الاية / ٢١

(٣) الاية / ١٩

(٤) الاية / ٢٧

(٥) الاية / ٧٢

الى المفعول بحرف الجر ، وهذا معنى تعليق الجار والمجرور بفعل أو ما هو بمنزلته كالمصدر وما اشتق منه، وهذا التعليق لايتأتى في الخبر المجرور بالباء بعد « ليس » و « ما » ولا في الاسم أو المبتدأ . ولا في الفاعل أو المفعول به ، فلذلك حكموا بزيادة حرف الجر ولم يزيدوا على القول إنه ورد لتوكيد النفي .

وهذا خلف من القول ، لأن توكيد النفي تكأة هشة لاتكاد تستقيم مالم تقف على قاعدة المعنى الأصلي لكل حرف يرد في سياق النفي .

ولنلتمس ذلك في معنى « من » فانها تأتي للاستغراق بعد النفي وانهم ليوردون معناها هذا حين يبحثون في بناء اسم « لا » التي لنفي الجنس في نحو قولنا : لارجل في الدار . فيقولون في واحد من توجيهاتهم لبناء الاسم إنه مضمن معنى « من » التي للاستغراق.

ومعنى الاستغراق فرع من معنى التبعيض يجوز إليه بوقوع الحرف في سياق النفي ، كأن المنفيَّ الشيءُ بأبعاضه وأجزائه كلها وهذا هو معنى الاستغراق .

ولعل معنى الالصاق في « الباء » هو الذي يصلح في موضع وقوعها مؤكدة للنفي .

وقد يتساءل الباحث : لم تجاهل النحاة هذا الواقع في الاستعمال على كثرته وشيوعه وجعلوا منه صورة فرع مع كثرته ومن النصب

والتجرد من الحرف الجار اصلا على ندرته ؟ .

والجواب سهل ميسور مرده الى استمساكهم بالأصول التي رسموها لقواعد الاعراب واتخاذهم إياها سبيلا لايحيدون عنه مهما قام الدليل العلمي على خطله أو ضيق حدوده عن استيعاب المادة العلمية .

بيان ذلك أن أصولهم تقرر أن الحرف إذا اختص بالأسماء ولم يكن كالجزء منها عمل فيها الجر ، وأنه إذا أشبه الأفعال في دخوله على الجمل عمل فيها عمل الأفعال من الرفع والنصب ، فأداة النفي شبيهة بالفعل الناسخ فهي تعمل عمله وعمله رفع الأول ونصب الثاني على الأكثر عدا « لا » التي لنفي الجنس . واذن فخبر هذه الأدوات منصوب ، فان ورد مجروراً بالباء أو بغيرها مهما كان وروده كثيراً فهو فرع عن النصب .

والحق أن على الباحث في مثل هذه الأمور أن يعود الى الأصول يتبين كيف قامت وعلى أي أساس وضعت. فان تبين له أن أصلا من الأصول جاء بخلاف المسموع والمروي من المأثور كان لابد له من معاودة النظر فيه ليقوم أساسه على المادة العلمية التي تستنبط منها القواعد وتقوم عليها الأصول .

ولاعبرة في علوم اللغة بالركون الى المنطق المجرد لأنه كثيراً ما يقود الى البعد عن الواقع ، ويأخذ في التدرج والتفرع شيئاً

فشيئاً حتى ينتهي الى امور غريبة عن مادة البحث التي لابد أن تكون هي الأساس في وضع القواعد ولاسيما قواعد اللغة .

ولعلنا لو أردنا ان نعاود النظر في هذه القاعدة لانتهينا الى أن خبر « ما » النافية يقع مجروراً بالباء في أغلب أحواله ولاسيما حين يكون مشتقاً ، ويقع منصوباً شأن أخبار النواسخ بقلة ، ولاسيما حين يكون جامداً غير مشتق نحو قوله تعالى في سورة يوسف :

« وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَٰذَا بَشَراً » (١) .

وفي سورة المجادلة :

« الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ » (٢) .

---

(١) الاية / ٣١

(٢) الاية / ٢

الفصل العاشر

أساليب قرآنية

وفي الكتاب العزيز اساليب وتراكيب لا يمكن ان يفي غيرها بمعناها ، ولا يؤدي سواها ما تؤديه .

منها : « ما » الاستفهامية مركبة مع لام الجر متصلة بالضمير متكلماً أو مخاطباً أو غائباً ، مالي ، مالك ، ماله ، قال تعالى : في سورة يوسف :

« قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ » (١) .

وفي سورة يس :

« وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٢) .

وفي سورة الصافات :

---

(١) الاية / ١١

(٢) الاية / ٢٢

« مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ » (١) .

« مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ » (٢) .

وفي سورة ص :

« وَقَالُوا مَالَنَا لاَ نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ ٱلْأَشْرَارِ » (٣) .

وفي سورة غافر :

« وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَىٰ النَّارِ . » (٤)

ولقد حير هذا الاسلوب القرآني عقول النحاة فلم يهتدوا فيه الى سبيل ، وخانهم الحس والذوق اللغوي فالتمسوا في التأويل والتقدير وسيلة ، ولاسيما حين يجدون بعده معمولا لاذكر ولا أثارة في الكلام للعامل فيه .

يقول الفراء في قوله تعالى :

« فَمَالَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا . »(٥)

نصب فئتين بالفعل تقول : مالك قائماً كما قال الله تبارك وتعالى :

« فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ . » (٦)

قال محققاه ـ كتاب معاني القرآن ـ في الحاشية : يريد به « يعني

(١) الاية / ٢٥
(٢) الاية / ٩٢
(٣) الاية /٦٢
(٤) الاية / ٤١
(٥) سورة النساء / الاية / ٨٨
(٦) معاني القرآن ج١ ص / ٢٨٠-٢٨١ ، والآية / ٣٦ من سورة المعارج

الفعل » متعلق الحار والمجرور(١) .

وقال الزمخشري في قوله تعالى من سورة الحديد :

« وَمَا لَكُمْ لاتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » (٢) .

لاتؤمنون حال من معنى الفعل في مالكم ، كما تقول مالك قائماً أي ما تصنع قائماً (٣) .

وليس هذا التركيب بدعاً في العربية ، ولا هو بالغريب في لغة موغلة في القدم ، صنع فيها التداول وطول المراس وكثرة التصرف ما صنع فأحال أفعالا الى حروف مثــل : « ليس » و« على» (٤) ، و « خلا » و «عدا» و «حاشا» ومزج الاسم بالقعل فاخرج من ذلك فعلا كـ « حبذا » ، ونحو ذلك مما عجزت قواعد النحو أن تجد له تفسيراً بحكم القيود التي أحكمها واضعو النحو الأوائل . ومن العجيب ان هذا التركيب الذي هجره الاستعمال الا دبي من جراء ذلك قد تلقفته لغة الحديث فظل حياً فيها حتى يومنا هذا ، تعرفه اللهجة العربية المصرية ولهجة الجنوب في العراق ، يقول لك المصري مالك واقف ويقول لك العراقي الجنوبي : « إش مالك حاير » .

(١) معاني القرآن ج ١ ص /٢٨١ ، ومحققاه : احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار .

(٢) الآية / ٨

(٣) الكشاف ج ٤ ص / ٦٤

(٤) للمؤلف بحث بعنوان : (من دلائل القدم في اللغة العربية) قدمه لمؤتمر المجمع اللغوي بالقاهرة في شباط / ١٩٦٧م

الفصل الحادي عشر

جملة الحال

قد تاتي جملة الحال فعلية فعلها ماض ، فاما ان يقع قبلها الواو أو لا ، وهي على كل حال لابد عندهم أن تكون مبدوءة بقد قبل الفعل الماضي ، ولعل الصناعة النحوية هي التي تملي عليهم هـذا الشرط لأن جملة الحال في تصورهم لابد أن تكون بمعنى الحـال وفعلها حينئذ ينبغي أن لايدل على غير معنى الحال .

والماضي الخالي من « قد » موغل في المضي فلا يصح والحالة هذه لأن يكون عماد جملة الحال . و (قد) حرف تحقيق ومعنى ذلك أن الفعل بعدها محقق الوقوع فهو أقرب الى معنى الحال لأنه للماضي القريب .

ولكن العبارة القرآنية يكثر فيها ورود الجملة الحالية التي فعلها ماض غير مسبوق بقد .

فمن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران :

« أَلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا » (١) .

يقول الزمخشري : اي قالوا وقد قعدوا (٢) .

وفي سورة البقرة :

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ »(٣) .

يقول الفراء : المعنى والله أعلم : « وقد كنتم » . ولولا إضمار « **قد** » لم يجز مثله في الكلام ، ألا ترى أنه قد قال في سورة يوسف :

« وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ » (٤) .

المعنى والله أعلم : فقد كذبت (٥) .

ومن أمثلة المواضع التي ورد فيها هذا الاستعمال قوله تعالى **في** سورة الأنعام :

« وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ »(٦) .

وقوله تعالى في سورة النمل :

« وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً » (٧) .

---

(١) الآية / ١٦٨
(٢) الكشاف ج١ ص /٢٢٩
(٣) الآية /٢٨
(٤) الآية / ٢٧
(٥) معاني القرآن ج ١ / ص : ٢٤
(٦) الآية / ١٠٠
(٧) الآية/ ١٤

قال الزمخشري : واو الحال و« قد » بعدها مضمرة (١).

ووردت جملة الحال التي فعلها ماض بغير الواو في قوله تعالى : « أَوْجَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُم » (٢) .

وههنا يعود الفراء فيقول : والعرب تقول أتاني ذهب عقله يريدون قد ذهب عقله ... فاذا رأيت (فَعَلَ) بعد كان ففيها « قد » مضمرة (٣) .

ومرد ذلك كما قلنا الى الصناعة النحوية . لأن جملة الحال كما أسلفنا لابد عندهم أن تكون بمعنى الحال و كون فعلها ماضيا يناقض ذلك .

وهذا تخليط وخلف من القول كما يقولون . لأن معنى الحال هنا غير معناها هناك في الأفعال . فهي هنا وصف فضلة منصوب توصف به الهيئة ، ولا مدخل لمعنى الزمن فيها من أي وجه .

اما اشتراط إضمار « قد » بعد الواو فلعل سببه أن « قد » كثيراً ما تكون في الجملة الفعلية حين تقع موقع الاسم كما في خبر « أن » المخففة من الثقيلة كقوله تعالى في سورة المائدة :

« قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا »(٤).

(١) الكشاف ج٣ ص / ١٣٥

(٢) سورة النساء الآية / ٩٠

(٣) معاني القرآن ج١ / ص : ٢٨٢

(٤) الآية / ١١٣

مثلها في ذلك مثل السين وسوف ولو .

وواو الحال عندهم تغني عن الضمير الذي يربط جملة الحال بصاحب الحال ، ووقوع « قد » بعدها ينفي احتمال ان يراد بها العطف .

* * *

ومما يدل على أن أقتران الفعل الماضي بقد يجعل الجملة الفعلية شبيهة بالاسمية صالحة لتقع موقعها ، انهم يشترطون اقتران جواب الشرط بالفاء حين يكون الجواب جملة فعلية مسبوقة بـ « قد » نحو قوله تعالى في سورة يوسف :

« قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » (١) .

ولذلك نجد المعربين والمفسرين يقدرون « قد » قبل الفعل الماضي اذا وقع جواباً للشرط مقترناً بالفاء كقوله تعالى في سورة يوسف :

« وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (٢).

ونحو قوله تعالى في سورة النمل :

« مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنونَ . وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ في النارِ . . . » (٣)

ومن بدائع أسلوب القرآن أنه يتصرف في الجملة تصرفاً لاتلحق به قواعد النحاة وعلماء البلاغة ، فيأتي بالجملة الخبرية لمعنى الانشاء

(١) الآية / ٧٧

(٢) الآية / ٢٧

(٣) الآية ٩٠

كالأمر والنهي ، وهو تلطف في الدخول الى النفس وبلوغ الغاية من الخطاب .

من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة :

« وَإِذ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدونَ إِلاَّ اللهَ »(١).

وقوله تعالى :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ »(٢) .

والزمخشري يفسر هذا الاستعمال تفسيراً يبلغ غاية الاصابة فيقول : إخبار في معنى النهي كما تقول : تذهب إلى فلان تقول له كذا تريد الأمر وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي ، لأنه كأنه سورع الى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه (٣) .

وشبيه بذلك قوله تعالى في سورة الصف :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ ، تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ »(٤).

جيء بالفعل المضارع لمعنى الأمر ، والمقام يقضي بذلك ويوحي

(١) الآية / ٨٣

(٢) الآية / ٨٤ من سورة البقرة

(٣) الكشاف ج١ ص / ٧٨- ٧٩

(٤) الآية /٩، ١٠

به ، واسلوب الخطاب من اوله لطيف المدخل رفيق رقيق ، الا ترى الاستفهام في جملته المليئة بالرفق والمحبة ، إنه لايناسبها صريح الأمر بحال ، ولذلك جيء بالفعل المضارع لمعنى الأمر ودليل ذلك أنه أجيب بعد ذلك بقوله تعالى :

« يَغْفِرْ لكُمْ ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلْكُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنهارُ » (١).

والفعل مجزوم لوقوعه في جواب الطلب .

ومثل هذا التصرف في الأسلوب تضيق به قواعدهم ، ولا يتسع له فهمهم لقضايا التركيب ومسائله ، وهو أدخل في علم المعاني الذي سلخوه من النحو أو سلخوا النحو منه فأحالوه يبساً لاماء فيه ولا رواء .

ولولا أن الزمخشري معرق في فهم الأساليب عميق في ذوقها وفي التمييز بينها لما ألفيناه يصيب غاية المعنى وغاية مرماه .

ومن مزايا العبارة القرآنية هذا التصرف في الأساليب تصرفا عجز النحاة أن يلحقوه أو يدركوا شأوه .

ومن أمثلة ذلك صور التعجب التي لا تعرفها كتب النحو ولا قواعد النحاة ، ولكن الزمخشري بصادق حسه ومرهف ذوقه بلغ مرماها وأحاط بمعناها .

قال تعالى في سورة المدثر :

« إنَّهُ فكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كيْفَ قَدَّرَ » (٢) .

---

(١) سورة الصف الآية / ١٢

(٢) الآية / ١٨ ، ١٩

يقول الزمخشري : تعجيب من تقديره وإصابته فيه المحز ورميه الغرض ....

ومعنى قول القائل قتله الله ما أشجعه وأخزاه الله ما أشعره ، الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بان يحسد عليه ويدعو عليه حاسده بذلك (١) .

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة عبس :

« قُتِلَ الإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ » (٢) .

ومن ألوان التعجب في القرآن الكريم نحو قوله تعالى في سورة الحاقة «ومَا هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قليلاً ماتُؤْمِنُونَ ، ولَابِقَولِ كاهِنٍ قليلاً ما تَذكَّرونَ»(٣).

يقول الزمخشري في تفسيره : والمعنى : ما أكفركم وما أغفلكم(٤)

إن أساليب العبارة القرآنية ذخيرة لايمكن ان يحيط بها مثل هذا البحث أو يستقصيها استقصاء ، وحسبه أن يلم بأطراف منها ويدل عليها . وهي معين ثر غدق يفتح لذي الذوق والحس اللغوي آفاقاً في فهم الأساليب وذوقها رحيبة مشرقة .

ويزيح عن نحو العربية عقاباً صنعها قصور الفهم وضيق الأفق عند كثير ممن أسسوا قواعد النحو وأحكموا مغاليقها في غير طائل .

ولعل هذه الأساليب الرفيعة واجدة في الباحثين ممن وهبوا

---

(١) الكشاف ج٤ ص / ١٥٨
(٢) الآية / ١٧
(٣) الآية / ٤١ ، ٤٢
(٤) الكشاف ج٤ ص / ١٣٧

فضيلة الصبر والأناة والبراح من الوقت والولوع بالبحث من يؤثرها بما تستحق من جهد قيم ووقت ثمين .

وغاية هذه البلغة أن تكون حجراً في بناء ، أو نبتة في حديقة غناء ، وأن تكون ثمرتها كفاء للنية التي قادت إليها وبعثت الهمة للحرص عليها .

والله من وراء القصد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

ثبت الكتاب

الصفحة	
٣	المقدمة
٦	تمهيد
١٨	المبتدأ والخبر
٢٧	الفعل والفاعل
٣٥	المفعــول
٣٨	حذف القول
٥٠	حرف الجر
٦١	غير وسوى
٦٨	المصدر ، حروفه
٧٦	اسم الفاعل
٨٦	جملة النفي
٩٣	أساليب قرآنية
٩٦	جملة الحال

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٣٤٥ لسنة ١٩٧٣